رواية

تشارلز ديكنز

ترنيمة عيد الميلاد

A CHRISTMAS CAROL

ترجمة: شيرين هنائي

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رواية..

ترنيمة عيد الميلاد

تأليف: تشارلز ديكنز

ترجمة: شيرين هنائي

نبذة عن الرواية

لقد تُوفي مارلي، لا شك في هذا..

بينما عاش سكروج، صديقه وشريكه، والذي كان يرى في الصدقات إسرافًا، وفي البهجة مُغالاة، وفي اجتماع الأهل استغلالًا ونوايا ملتوية.

لم يكن أحد يحب سكروج، لكن في ليلة عيد الميلاد، يعود شبح صديقه الوحيد مارلي - مُحملًا بالندم والأوزار- ويطلب من صديق عمره أن يستقبل ثلاث أرواح في ثلاث ليالٍ متتالية، وباستقبال الأرواح، تنقلب حياة سكروج رأسًا على عقب.

مُقدمة

حاولتُ، في هذا الكتاب الروحاني الصغير، أنْ أثيرَ فكرةً عبر قصَّة أشباح، قصَّة لن تُخرِج قرائي من مَرحهم مع أنفسهم أو مع الآخرين، ولن تُبعدهم عن أجواء الموسم البهيجة، ولن تُبعدهم عنِّي.. لكنها ربما تُسكِن بيوتهم بأشباح السعادة التي لن يريد أحدٌ أن يُبعدَها.

صديقكم وخادمكم المُخلص:

تشارلز ديكنز

في ديسمبر ١٨٤٣م

المقطع الأول
شبح «مارلي»

بدايةً، فإن «مارلي» قد مات ولا ريب.

وقَّع رجلُ دِينٍ على تصريح دفنه، وكذا فعل كاتبُ العدل والحانوتي ورئيس النَّدَّابين.

كذلك وقَّع التصريحَ «سكروج» بنفسه، ويمنحُ توقيع «سكروج» ثِقلًا وجدية لأي شيء يوضع عليه.

وكان «مارلي» العجوز ميِّتًا كمسمار باب صدئ.

ليكُن في معلومك، أنا لا أعرف تحديدًا كيف لميتٍ أن يبدو كمسمار باب صدئ، لربما كان الأفضل استخدام تعبير «كمسمار تابوت صدئ»؛ فمسامير التوابيت هي أكثر الأشياء مواتًا في عالم الحِدادة، لكنني أحافظ على مقولات الأسلاف، وأُبعد يديَّ عن المساس بها؛ لذا فعليَّ أن أكرِّر العبارة ذاتها، وأقول: إن «مارلي» كان ميتًا كمسمار باب صدئ.

وهل علم «سكروج» بنبأ موته؟ وكيف لا يعلم؟! فقد كانا شريكين منذ زمنٍ لا يعلم عِدته إلا الله. «سكروج» كان مُدير «مارلي» التنفيذي الوحيد، ومسؤول تعييناته الوحيد، ومندوبه التكميلي الوحيد، وصديقه الوحيد، ومُعزيه الوحيد.

حتى وكون «سكروج» لم يُفجع بخبر الوفاة إلى حد بعيد، إلا أنه كان رجلًا عمليًّا وكلَّل يوم الجِنازة بصفقة عمل أكيدة.

ذِكر جِنازة «مارلي» يُعيدُني إلى النقطة التي بدأتُ منها حديثي، فلا شك أن «مارلي» قد مات، وهذا أمر مفروغ منه، وإلا فما المتعة من القصة التي سأحكيها؟

إن لم نكُن موقنين بوفاة أبي «هاملت» قبل بداية المسرحية، ما وجدنا أمر تجوال «هاملت» وحيدًا في الليل لافتًا للانتباه، وما انبثقت من تمشيته أحداث جذَّابة شائقة.

لم يُزل «سكروج» اسم «مارلي» العجوز من فوق لافتة المتجر، وظل اسم «سكروج ومارلي» مُكلَلًا اللافتة لسنوات بعد وفاة الأخير، حتى إن بعض المستجدين في التجارة كانوا يطلقون على «سكروج» اسم «سكروج»، وبعضهم يطلق عليه اسم «مارلي»، وكان كِلا الاسمين واحدًا لديه، واعتاد أن يُجيب إذا نُودي بأيهما.

ولَكَم كان «سكروج» قاسيًا، قابضًا بيديه على حجر الرَّحى، يطحن بين شِقَّيه المُحتاج، ولا يَفلِت حتى الحديد من بين قبضتيه من فرط قساوته، فيطحن، ويعصر، ويشُد على الخلائق.. ما أقساه من مُذنبٍ مُتحجِّر الفؤاد!

كان موحشًا كقبرٍ مهجور، وحيدًا كمَحَارة خارج البحر. تُجمِّدُ بُرودةُ نَفسِهِ ملامحَه، وتشحذ طرف أنفه المُدبَّب، وتُذبِل خديه، وتُصلِّب مشيته، وتَمس عينيه فتحمَرَّان، وشفتيه فَتَزرَقَّان، وتتجليان مخيفتين

على صوته المُزعِج. يتوِّج رأسَه وأعالي حاجبيه شعرٌ أبيض كنِدَف الثلج، وينتثر الشعر ذاته على طرف ذقنه كذلك.

تشعر حين تراه وكأنه يَجُر شتاءه الخاصَّ خلفه، حتى في أحرِّ أيام الصيف، وفي موسم عيد الميلاد. لا يُفلح شيء في إذابة جليد روحه.

كل عوامل الطقس الخارجية لا تؤثِّر في «سكروج». لا الحرارة تُدفئه، ولا البرودة تتغلَّب على برودة نَفسِه، ولا الريح العاتية تفلح في أن تكون أشدَّ قسوةً منه. لا، لا يمكن للطقس، مهما قسا، أن يكون في قساوة «سكروج».

المطر والثلج والريح والبَرَد، كلهم يهدَؤون في وقتٍ ما، إلا «سكروج»؛ فهو أبديُّ التجبُّر.

لم يوقفه أحد قط ليهتف به في سرور:

- عزيزي «سكروج»، كيف حالك؟ متى تزورني؟

لم يستوقفه مسكين قط يطلب منه قُوتَ ساعة، ولم يسأله طفلٌ عابر قط عن الوقت، ولم يطلب منه رجل أو امرأة قط إرشادًا لطريق.. حتى إن كلابَ العِميان تعرفه؛ فحين تشم رائحته تجذب أصحابها مبتعدة بهم عن مُلاقاته، ثم تدسُّ ذيولها بين أفخاذها فارَّات، ولسان حالها يقول: العمى خيرٌ من أن تُبصر «سكروج» يا سيدي!

لكن، هل يأبه «سكروج»؟! كان هذا هو جُل ما يبتغيه، أن يسير في دروب الحياة مُحذِّرًا الناس من الاقتراب، متفاديًا تعاطفهم ومحبتهم وكل ما يجيء من ناحيتهم.

* * *

في يوم – في اليوم الأخير من أيَّام السنة، تحديدًا ليلة عيد الميلاد- جلس «سكروج» في مكتب المُحاسَبة مُنشغلًا، يحيط به الطقسُ البارد الذي يجمِّد الدم في العروق، ويحجب ضَبابهُ المناظر عن الأعيُن.

كان يسمع الناس عند المحكمة في الخارج يصخبون، يحكُّون صدورهم بأكفِّهم، ويقرعون أحجار الرصيف بأقدامهم طلبًا للدفء. دقَّت ساعات المدينة مُعلنةً الساعة الثالثة، لكن السماء كانت قد أظلمت بالفعل، فقد كان يومًا غائمًا منذ بدايته، تسطع فيه أنوار الشموع خلال نوافذ المكاتب على جانبي الشارع في وسط النهار.

وكأنَّ اليوم ينقصه ظلام آخر؛ فقد بدأ الضباب في التدفُّق عبر الشوارع والانسلال من فتحات الأبواب، حتى حَجَب مبنى المحكمة المتاخم لمكتب «سكروج»، وصار كل شيء بالنسبة للعجوز الوحيد ظلالًا وأطيافًا.

حين يرى المرءُ السحابَ يهوي في الطرقات هكذا، يفكِّر في أن الطبيعة تُخطط وتُحضر لحدث جلل هي الأخرى.

كان المكتب الذي يجلس فيه «سكروج» مفتوح الباب، كي يستطيع أن يُرى كاتبه، الجالس فيما يشبه زنزانة كئيبة ينسخ الخطابات.

مقارنةً بالنار التي أشعلها «سكروج» في مكتبه للتدفئة، كانت تدفئة الكاتب وكأنَّها نابعة من قطعة فحم واحدة. لم يستطِع الموظف اليائس الاعتراض أو جلب المزيد؛ فقد كان «سكروج» يحتفظ بصندوق الفحم في حجرته، في حال خطَّط الموظف أن يأتي للعمل بجاروف لسرقة الفحم مثلًا.

تدثَّر الكاتب بشاله الأبيض الصوفي وحاول تدفئة نفسه من حرارة الشمعة، ولم يكُن رجلًا واسع الخيال؛ فلم يستطِع بعد هنيهة أن يقنع نفسه أن حرارة الشمعة تكفي لأي تدفئة.

- عيد ميلاد مجيد يا خالي.. حفظك الله!

صدح صوت ابن أخت «سكروج»، وقد دخل عليه بسرعة، حتى إن عبارته تلك هي ما نبَّهت خاله إلى قدومه.

رد «سكروج» ساخرًا ملولًا:

- مَهٍ.. عيد الميلاد مجرد كلام فارغ..

توهَّج خدَّا ابن أخت «سكروج» بالحُمرة من البرد والسير وسط الضباب، وتألَّق وجهه الوسيم ولمعت عيناه، وراح البخار يتصاعد من فيه وهو يهتف:

- عيد الميلاد كلامٌ فارغ يا خالي؟! أنت لا تقصد ما قلت، أليس كذلك؟ أنا مُتأكِّد.

- أنا أقصد كل كلمة.. يقولون لك: عيد ميلاد مجيد سعيد.. علامَ السعادة؟ وما سبب تلك السعادة المزعومة؟ هه! أتفرح لفقرك وتسير مُوزِّعًا السعادة؟ وافرحتاه!

رد ابن أخته بمرح:

- وبأيِّ حقٍّ تكتئب أنت؟ وما سبب أساك؟ أنت غنيٌّ، فلمَ لا توزِّع أنت السعادة؟

لم يدُر في خَلَد «سكروج» ردٌّ مناسب في التوِّ، فقال:

- مَهٍ.. مجرد كلامٍ فارغ..

- لا تُعارض يا خالي.

- وماذا أملك سوى المُعارضة، وأنا أحيا في عالم من الحمقى؟ عيد ميلاد مجيد سعيد! سُحقًا لعيد الميلاد! ما هي إلا أيام تُصفَّى فيها الجيوب من الأموال كي تُنفَق في الكلام الفارغ، أيام تجد نفسك فيها أكبر بعامٍ عن مثيلاتها من العام السابق. أيام لا تزيدك مالًا، بل عُمرًا، وتشهد فيها جنازة اثني عشر شهرًا خَلَتْ..

ثم أردف «سكروج» ساخطًا:

- لو كنت تاركًا خلفي وصية، لأوصيت أن كل من ينطق بعبارة «عيد ميلاد مجيد» هذه، يُغرس في قلبه وتدٌ من أخشاب شجرة عيد الميلاد ويُدفن حيًّا.

- خالي!

- ابن أختي! احفظ عيد ميلادك كما تحبه أن يكون، واتركني في حالي.

ردد ابن اخته عبارته:

- أحفظ عيد ميلادي؟ وأنت؟

- دعني وشأني، ودع عيد الميلاد وشأنه.. بم نَفَعك عيد الميلاد كي ينفعني؟!

- نفعني بالكثير، لكنني بالطبع لم أتكسَّب منه، إن كان هذا ما تعنيه. لطالما كنتُ أفكِّر في وقت عيد الميلاد بمعزلٍ عن نشأته المقدَّسة وعلاقته بالدين.. بالنسبة لي هو وقتُ خيرٍ ومحبةٍ وتسامح. هو الوقت الوحيد في التقويم الذي تنفتح فيه قلوب الرجال والنساء المُوصدة، وتصير ملجأً لكل البُسطاء وكأنهم أهلٌ ورفقة، لا جنس آخر منبوذ من البشر. ومع ذلك يا خالي، وعلى الرغم من أن تلك الأيام لا تزيد المالَ في جيبي، فإنها زادت وستزيد الرفق والإخلاص في قلبي. فليبارك الله تلك الأيام.

هزَّ الكاتبُ في الزنزانة رأسَه استحسانًا وتمتم بكلمات مُدغمات، ثم أدرك أنه من غير اللائق استراق السمع، فراح يحرِّك الفحم في المدفئة مُستهلكًا آخر نفحات الدفء.

صاح «سكروج» في الكاتب:

- لو سمعت منك همهمة أخرى فستجد نفسك مطرودًا مُهانًا..

ثم التفت إلى ابن أخته مُردفًا:

- لِمَ لا تنضم إلى البرلمان وتُريحني من خُطبك العصماء؟

- لا تغضب مني يا خالي.. كل ما أريده هو أن تتناول عشاءك معنا غدًا.

في البداية، استحسن «سكروج» الفكرة، وهمَّ بأن يُعلن موافقته، لكنه صمتَ ثواني ثم هتف مُتسائِلًا في ريبة:

- لكن لماذا؟ هه! لماذا تقيمون عشاءً وتدعون إليه الناس؟

- لأنني وقعتُ في الحب.. سأتزوَّج!

صاح «سكروج» وكأنَّ ما قاله ابن أخته هو أسخف شيء في العالم بعد عبارة «عيد ميلادٍ مجيد سعيد»:

- لأنك وقعت في الحب؟! عِمتَ مساءً إذًا.

- خالي.. أنت لم تزُرني قبل أن أقرِّر الزواج، فما يمنعك من زيارتي الآن؟

- عِمتَ مساءً.

- أنا لا أريد منك مالًا إن كان هذا ما فهمته.. أنا لا أطلب منك شيئًا سوى أن نكون صديقين!

- عِمتَ مساءً.

- أنا آسف يا خالي، وحزين كونك مُصرًّا على الرفض إلى هذا الحد. نحن لم نتشاجر من قبلُ كي تشعر تجاهي بهذا الجفاء، لكنني سأحتفظ بروح عيد الميلاد حتى النهاية، وسآمل أن تُغيِّر رأيك؛ لذا.. عيد ميلاد مجيد سعيد يا خالي.

- عِمتَ مساءً.

- وعام جديد سعيد.

- عِمتَ مساءً!

غادر ابن أخته الحجرة دون أن ينبس بكلمة قاسية واحدة، لكنه توقَّف عند الباب الخارجي كي يرجو عامًا سعيدًا للكاتب، الذي على الرغم من معاناته البردَ، كان أكثر دفئًا من «سكروج» حين ردَّ الأمنيات الطيبة بأطيب منها.

غمغم «سكروج» بعد سماعِه حوارهما القصير:

- كاتبي الذي لا يزيد راتبه على خمسة عشر شِلِنًا في الأسبوع يرجو عيدَ ميلادٍ مجيدًا سعيدًا! سأُجن منهم!

بخروج ابن أخت «سكروج»، دخل رجلان مَهيبان، ووقفا أمام «سكروج»، حاملين رُزمًا من الأوراق، وانحنيا له تحيَّةً.

قال أحد الرجلين، مشيرًا إلى صفحة مخطوطٍ عليها قائمة أسماء:

- هذا متجر «سكروج ومارلي» كما أظن! هل لي أن أخاطب السيد «سكروج» أو السيد «مارلي»؟

رد «سكروج» في ملل:

- مات «مارلي» منذ سبعة أعوام في مثل هذه الليلة.

- نعتقد أن شريكه سيعوِّض سخاءه وكرمه إذًا.

عبس «سكروج» عند ذكر كلمتي «سخاءه وكرمه»، ونظر سريعًا في الأوراق التي سلَّمها له الرجل، ثم أعادها إليه مقطِّبًا حاجبيه.

أخرج الرجلُ قلمَه قائلًا:

- في هذه الأيام المباركات يا سيد «سكروج»، يكون عملنا هو جمع بعض الإعانات والتبرعات للفقراء والمُعْوِزين الذين يعانون متطلبات عصرنا الحالي. يحتاج الآلاف إلى ضروريات الحياة، ويفتقر مئات الآلاف إلى مسكن ومأكل يا سيدي.

- ألا توجد سجون؟

- هناك عشرات السجون.

- والإصلاحيات التي تؤوي الفقراء، ألا تزال موجودة؟

- بلى.

- والمصانع والمطاحن والمزارع، هل اكتفت من العمال؟

- بالعكس.

- أوه.. كنت أخشى- مِمَّا فهمته من بداية حديثك- أن عجلة العمل قد توقفت، أو أننا نعاني خطبًا ما يُجبرنا على الإنفاق على عاطلين. لكنني اطمأننتُ الآن أن كل شيء بخير.

قال الرجل في رفق:

- من المستحيل أن تمنح الإصلاحياتُ والسجونُ دفءَ أجواء عيد الميلاد للفقراء، ونحن نحاول جمع بعض المساعدات لهم لشراء ملابس وأطعمة لهذا الموسم، وقد اخترنا هذا الوقت بالذات لأنه الوقت الذي يُشعِر الفقير بفقره والمحتاج بحاجته، فكم ستمنحنا؟

- لا شيء!

- هل تودُّ ألَّا ندوِّن اسمك ونكتب مكانه «فاعل خير» مثلًا؟

- أودُّ أن أُترك وشأني، بما أنك سألتني عمَّا أودُّ حقًّا. أنا شخصيًّا عاجز عن جعل نفسي سعيدًا في عيد الميلاد، وفاقد الشيء لا يعطيه. الضرائب التي أتكبَّدها تذهب للإصلاحيات والسجون، وعلى هذه الأماكن أن تقوم بدورها، لا أن تُلقي حملها عليَّ مُجددًا.

- كثير من المُحتاجين لا يمكنهم الذهاب إلى تلك المآوي، وكثير منهم أضعف من تحمُّل قسوة العيش فيها؛ فهم يفضلون الموت عليها.

- لو أنهم يفضلون الموت، فليتفضلوا بالموت شاكرين، إن كان منهم من سيموت، فليمُت الآن وليُسهم في تقليل الكثافة السكانية.. بالإضافة إلى أنني لا أعرف ظروف تلك الأماكن.

- ها أنا قد أخبرتك.

- لا يهمني ما أخبرتني، فيكفي المرء معرفته بظروف عمله، ولا مجال للتدخُّل في شؤون الأعمال الأخرى. طابت ليلتكما.

يئس الرجلان من مُتابعة إقناعه بوجهة نظرهما، فتراجعا خارجَين من المكتب، وأكمل «سكروج» عمله وقد اقتنع أكثر برؤيته لعيد الميلاد وعطاياه؛ فقد فشل كل مَن حاولوا إثبات عكس رؤيته في إقناعه أو الصمود أمام حُجته.

تزايد الظلام، وازدادت كثافة الضباب بالخارج، فراح الناس يعدون حاملي المشاعل، في محاولةٍ لإنهاء أعمالهم والعودة سريعًا إلى بيوتهم. حجب الضباب مرأى جرس الكنيسة المُدلى من برج قوطي الطراز عن «سكروج»، واختفى تمامًا إلا من صوت حركة عقارب الساعة الكبيرة المُثبَّتة عليه.

أمام المحكمة، أشعل بعضُ العُمال نيرانًا عظيمة كي يواصلوا إصلاح مواسير الغاز، وقد جمعت تلك النار المارة البُسطاء حولها، وراحوا يحكُّون أكفهم طلبًا للدفء. جوارهم تجمَّدت المياه المُتسربة من مواسير الماء في أشكال لامعة فريدة.

أما نوافذ المتاجر، فكانت مُضاءةً بالشموع، مُزيَّنةً بأطواق أوراق الغار والكَرَز، باعثةً بضوءٍ دافئ اللون أضفى على وجوه المارة الشاحبة حياةً وسعادة.

أما تجارة الدواجن والبقالة فصارت أضحوكة، وراح بعض الباعة يوزِّعون الطعام والشراب على الفقراء، حتى ظنَّهم «سكروج» قد نسوا البيع والشراء والمقايضة. وانخرط طباخو عُمدة المدينة في طهي أصناف الطعام وعرضها في موائد مجَّانية.. حتى الترزي البائس الذي كان مخمورًا الأسبوع الماضي، مُترنِّحًا في الشوارع يزعج المارة، أفرد يومًا تطهو فيه زوجته حساء عظمٍ ونخاع للمحتاجين.

برد قارس، زمهرير يُجمِّد نخاع الشيطان ذاته. وعلى الرغم من ذلك، شاب صغير يلوك البردُ عظامَه، كما تلوك الكلابُ العظامَ، وقف ينشد ترنيمة عيد ميلاد عند باب مكتب «سكروج» كي يُبهجه.

- فليباركك الله ولتسعد يا سيدي، وليبعد الله عنك كل أسى.

قَبض «سكروج» على مِسطَرة أمامه بحزم، ففزع الشاب وأرسل ساقَيه للريح، تاركًا فرجة الباب ليزحف منها الضباب مُتسلِّلًا برفقة الهواء المُثلج.

وأخيرًا، حان موعد غلق مكتب المحاسبات لهذا اليوم، وقام «سكروج» مُعتل المِزاج من فوق كُرسيه، وفهم الكاتب ضمنيًّا أن موعد المغادرة قد حان، فنفخ شمعته ليطفئها، وعَمِد إلى قبعته يعتمرها.

سأله «سكروج»:

- أظنك ستطلب إجازة طيلة يوم غدٍ؟

- إن كان هذا ملائمًا لك يا سيدي.

- ليس ملائمًا لي. ليس عدلًا أن أخسر مليمًا، بينما تستمتع أنت. أنت تُفيدني، ولا بُدَّ أن تشعر أنك عديم المنفعة إن أصررت على إجازة.

ابتسم الكاتب في وجل، فأردف «سكروج»:

- وما زلتَ تتعشَّم أن أدفع راتب يوم لم تعمل فيه!

قال الكاتب:

- إنها مجرد إجازة سنوية، يوم واحد لن يضير.

صاح «سكروج»:

- عذرٌ واهٍ لإفراغ جيبي في كل خامسٍ وعشرين من ديسمبر من كل عام!

زرَّر «سكروج» معطفه الثقيل حتى ذقنه، وأضاف:

- على الرغم من ذلك، أظنك لن تحتاج إلى اليوم بأكمله، سأنتظرك في الصباح الباكر غدًا.

وعد الكاتبُ بأنه سيأتي في موعده، وخرج «سكروج» مُتذمِّرًا. أغلق الكاتبُ المكتبَ في طَرفة عين، وراح يجرُّ أطراف شاله الصوفي الأبيض، سالكًا شارع كورنهيل- خائضًا وسط لَعِب الصبية وفرحهم بعيد الميلاد- حتى يصل إلى بيته في أبكر موعدٍ، ليلحق بما يستطيع من مرح الليالي المُباركة.

في التوقيت نفسه، كان «سكروج» يتناول عشاءه الكئيب في حانته المعتادة الكئيبة، وفرغ من قراءة الجرائد جميعها فلم يعُد من شيء يُفعَل، فقرر الخلود إلى النوم في منزله.

كان يعيش في شقة كانت مملوكةً لشريكه الفقيد، تقع في مبنى مظلم فاخر، متكوِّم وسط المباني المغايرة الشابَّة. منزل مُسن ربما لتحبه لو شهدته في أيام طفولته، يلعب الغُمِّيضة مع المباني الطفلة الأخرى، ولربما تظن أنه قد ضل طريقه في أثناء لعبه في طفولته، ووجد لنفسه مخبأً وسط مبانٍ لا ينتمي إليها.

صار المنزلُ عجوزًا، مرعبًا، وقد هجره سكانه إلا «سكروج»، وتحوَّلت باقي شققه إلى مكاتب، بينما صارت باحتُهُ مظلمةً يتعثَّر في ظلمتها المارة، حتى «سكروج» الذي ألفها لم يكُن في مقدوره السير خلالها دون أن يمد ذراعيه أمامه متحسسًا طريقه.

الجليد يتدلَّى كالأنياب من أعلى البوابة الحديدية السوداء، والضباب يُضفي سمتًا شبحيًّا لكل شيء، وكأنَّ الموجودات تطفو.

هنا، علينا أن نُرسي بعض الحقائق، منها: أنه لم يكُن ثَمَّةَ شيء مميز في باب الشقة إلا المقرعة، ولم يكُن يميزها سوى حجمها العملاق.

ومن الحقائق كذلك: أنها كانت مألوفة لـ«سكروج»، يراها ليلاً ونهارًا خلال سنوات إقامته في الشقة منذ وفاة صاحبها وشريكه «مارلي».

حقيقة أخرى، هي أن «سكروج» لم يكُن يحب «مارلي» أكثر مِمَّا يحب أي شخص أو شيء آخر في المدينة، بما في ذلك أعضاء النقابات والعجائز وكسوات الخيول. لم يذكر «سكروج» «مارلي» إلا لِمامًا، منها تلك المرة العابرة عند الظهيرة.

ضع في ذهنك تلك الحقائق، ولتَجِبْني بالله عليك: كيف لـ«سكروج» أن يرى بدلًا من المقرعة وجه شريكه المتوفَّى «مارلي»؟!

لم يكُن الوجه الذي رآه مجرد ظلٍّ في الظلام، بل كان مُتوهجًا كسرطانِ بحرٍ فاسدٍ وسط حُلكة خزانة مُظلمة. لم تكُن ملامحه غضبانة أو شرسة، بل ملامح «مارلي» العادية التي كان يألفها «سكروج»، بنظارته المرفوعة أعلى جبهته. فقط كان شعرُه ثائرًا وعيناه مُتسعتين ثابتتين.

مظهره الحي، بألوانه الزاهية، كان مُفزعًا إفزَاعًا يفوق قدرة «سكروج» على التحكُّم، ولم يكُن مصدر الفزع ملامح الوجه، بل شيئًا خلف ذلك كله.

وبينما يحدِّق «سكروج» في تلك الظاهرة العجيبة، اختفى الوجه وعادت المقرعة لما كانت عليه دومًا، مجرد مقرعة.

أكذب لو قلت إنه لم يفزع مِمَّا رآه، ولم تضطرب الدماء في عروقه رُعبًا، لكنه عاد إلى ثباته سريعًا، ودسَّ مفتاحه في القفل وأداره في حزم، ثم دلف إلى الشقة وأشعل شمعته.

تمهَّل قليلًا مُحملِقًا في المقرعة قبل أن يُغلق الباب، وحدَّق في الباب نفسه بعد غلقه، وكأنَّه يتوقَّع أن تُطلَّ منه عِقصة شعر «مارلي»، لكنه لم يرَ سوى المسامير والصواميل التي تربط المقرعة بالباب.

ظلَّ صوت غلق الباب يتردَّد في أنحاء الشقة كالرعد، وكأنَّ كل حجرة لها صوت صدى خاص بها، إلا أن «سكروج» لم يكُن ممن يخافون من الصدى. أحكم غلق المزلاج وسار عبر الردهة صاعدًا إلى الطابق العلوي، مُشذِّبًا شمعته في صعوده المُتأنِّي.

السلم العتيق يتسع لعربة تجرها ستة خيول، أو لعقد جلسة تضم أعضاء البرلمان كاملين، أو لسير عربة موتى بالعرض بسهولة تامَّة. أعني بقولي هذا أن السُّلَّم كان مُتسعًا بحيث رأى «سكروج» بوضوح قاطرة عربات تمر إلى جواره في الغبشة. وعلى الرغم من الضوء المُنبعث من مصابيح الشارع، فإنها لم تفلح في تبديد ظلام الردهة، ولم تقدر شمعة «سكروج» الهزيلة على إنارة هذا الاتساع.

لذا، لم يفكِّر «سكروج» كثيرًا فيما رآه، واستكمل صعوده. الظلام مجاني؛ لذا أحبَّه «سكروج». جال العجوز في الحجرات متأكِّدًا من أن كل شيء على ما يرام، فقد نال ما يكفيه من مرأى الوجه بالأسفل.

حجرة المعيشة، حجرة النوم، حجرة التخزين.. كل شيء كما توقَّع أن يكون. لا أحد تحت الطاولات، ولا خلف الأرائك، ولا داخل الخزائن، ولا حتى في جلباب نومه المُعلَّق في وضع مُريب على الحائط.

وحجرة الخزين كانت كما اعتادها: حاجز مدفأة قديم، أحذية قديمة، سلَّتا صيد أسماك، حوض غسيل على حامل ثلاثي، مِحْراك نار.

اطمأن فأوصد بابه وأحكم غلقه بالمزاليج على عكس عادته. خلع رابطة عُنقه، وملابس العمل، وارتدى جلبابه وخُفَّيه وغطاء رأسه، ثم جلس أمام المدفأة الصغيرة ليتناول عصيدته.

النار أمامه واهنة تكاد تنطفئ، وبدلًا من إطعامها مزيدًا من الأخشاب، قرَّر أن يقترب منها أكثر وينحني نحوها حتى يستطيع استخلاص آخر قطرات الدفء من وقودها.

كانت المدفأة عتيقة، بناها تاجر هولندي منذ دهر، وقد عبَّد حوائطها بآجر هولندي منقوش عليه لقطات من قَصص الكتاب المُقدَّس: قابيل وهابيل، بنات فرعون، ملكة سبأ، رُسُل من الملائكة يتنزَّلون من السماء محمولين على سُحبٍ كفُرُشٍ من ريش. مئات من الرسومات الموحية الخلَّابة.. ومع ذلك، عاد وجه «مارلي» – الميِّت منذ سبعة أعوام- يطفو من جديد، مُزيحًا ملامح الأنبياء والملائكة ليحلَّ محلها.

صاح «سكروج» سائرًا عبر الحجرة:

- كلام فارغ!

بعد بضع دوراتٍ حاول أن يزيل خلالها الخيالات عن عقله، عاد إلى مقعدة وأرجع رأسه إلى الخلف، وصادفت عيناه جرسًا قديمًا معلقًا في سقف الحجرة. وبعد لحظات رأى الجرس يتأرجح بخفَّة، حتى إن صوته لم يكُن ظاهرًا في البداية، لكن سرعان ما ازدادت قوة تأرجُحه وعلا صوته، ثم تبعه كل جرس في المنزل، وصدحت الأصوات عاليةً مُزعجة.

دامت الدقات نصف دقيقة أو دقيقة، لكنها بدت كساعة، ثم بدأت الأصوات تخفُت معًا كما بدأت معًا، مُنتهيةً بصوتٍ معدنيٍّ ممطوط غريب. وتذكَّر «سكروج» أن الأشباح في المنازل المسكونة تُصدر صوتَ جرِّ سلاسل حديدية.

فُتح باب الحجرة بقوة حتى كاد ينخلع، ثم سمع «سكروج» الضوضاء تتعالى من الطابق السفلي صاعدةً الدَّرج، مُتجهةً إلى حيث يجلس.

قال «سكروج» متعجرفًا:

- هذا كله كلام فارغ.. لن أصدِّق هذا الهراء.

ومع ذلك، فقد تغيَّر لون وجه «سكروج»، عندما رآه أمامه، داخلًا من الباب، وتصاعدت النيران في المدفأة وكأنما تصيح: «أعرفه! هذا شبح مارلي!»، قبل أن تخمُد تمامًا.

كان وجه «مارلي» كما اعتاده «سكروج» في حياته، بعِقصة شعره ومعطفه القديم، وبنطاله وحذائه ذي الرقبة. رأى «سكروج» سلسلة غليظة مربوطة حول خصر «مارلي»، ومُدلاة من خلفه كذيل. عندما دقَّق فيها «سكروج» جيدًا وجدها مصنوعة من صناديق النقود، والمفاتيح، والأقفال، والعقود، والمحافظ.. وذلك كله مربوط بعضه إلى بعض بالحديد. كان جسدُ «مارلي» شفافًا تستطيع أن ترى أزرار المعطف الخلفية من خلاله. كانوا يقولون إن «مارلي» بلا قلب، ولم يصدق «سكروج» حتى رأى قلبه بعينيه الآن.. كلا، حتى عندما رآه «سكروج» لم يصدِّق وجود الكيان الماثل أمامه من الأساس، مع البرودة المنبعثة من عينيه وما تبثه من شعور بأن هذا كله وهمٌ أو حُلم.

صاح «سكروج» ببرود:

- وماذا الآن؟ ماذا تريد مني؟

- الكثير!

كان هذا هو صوت «مارلي» ولا ريب.

- من أنت؟!

- اسألني من كُنت.

- من كُنتَ إذًا؟! تبدو مُحددًا في مطالبك بالنسبة لكونك ظلًّا.

ودَّ «سكروج» لو قالها: تبدو مُحددًا في مطالبك بالنسبة لكونك «مجرد» ظِلٍّ.. لكنه وجد في إضافة تلك الكلمة وقاحة زائدة.

- في حياتي، كنت شريكك جايكوب مارلي.

نظر «سكروج» إليه في شك وقال:

- هل... هل يمكنك الجلوس؟

- يمكنني.

- اجلس إذًا!

سأله «سكروج» سؤاله هذا لأنه لم يعرف ما إذا كان شبح شفاف كهذا قادرًا على الجلوس أم لا، وإن لم يكُن في مقدوره الجلوس، فسيتطلَّب هذا من الشبح تفسيرًا ربما أحرجه.

جلس «مارلي» على المقعد المُقابل جوار المدفأة وكأنَّه مُعتاد على هذا المكان، ثم سأل:

- أنت لا تصدق وجودي، أليس كذلك؟

- بالفعل، لا أصدق.

- وماذا تريد دليلًا على وجودي أقوى من حواسك؟

- لا أعرف.

- ولماذا لا تثق بحواسك؟

- لأنها تتأثَّر بأتفه العوامل.. تعب بسيط في المعدة قد يشوِّش حواسك، وأعتقد أن عصيدتي ربما أتعبت معدتي.. يقولون إن تعب المعدة أهون من التخلُّص من الطعام الفاسد، هه؟ أليس كذلك؟

حاول «سكروج» انتزاع مُزحة من عبارته كي يُخفي خلفها توتُّره وخوفه، ولم يكُن من عادته المزاح، لكنه كان يشتِّت انتباه نفسه كي لا يجزع ويتجمَّد الدم في عروقه.

أن تجلس مُحدقًا في هاتين العينين الثابتتين يُشعرك بأن ثمَّة خصمًا يتحداك، ثمَّة ما يُوتَر في تلك الهالة الجحيمية حول الشبح، لم يكُن «سكروج» يشعر بها، لكن على الرغم من ثبات الشبح أمامه فإن شعره وملابسه كانت تتموَّج في الهواء كأنما خارجة من موقد ساخن للتو.

عاد «سكروج» إلى إدارة دفة الحديث سائلًا:

- أترى عود تنظيف الأسنان هذا؟

كان سؤاله بغرض دفع عيني «مارلي» المحدقتين عنه في اتجاه آخر ولو للحظة.. رد الشبح:

- أراه.

- لكنك لا تنظر إليه!

- لكنني أراه على الرغم من ذلك.

رد «سكروج» منزعجًا:

- حسنًا.. لستُ مُضطرًّا لابتلاع ما قُلتَ، ولن أقبل أن أحيا بقية حياتي تضطهدني أشباحٌ من نسج خيالي.. هذا كلام فارغ، أقول لك: مجرد كلام فارغ!

هنا، صرخ الشبح صرخةً مخيفة، وهزَّ أغلاله في أسفٍ مُصدِرًا صوتًا مروِّعًا، حتى إن «سكروج» تمسَّك بمسندي كرسيه حتى لا يفقد وعيه. خلع الشبحُ الضمادةَ التي تربط رأسه وكأنَّه شعر بحرارة لا يطيقها، هنا سقط فكه إلى أسفل حتى بلغ صدره!

هوى «سكروج» على ركبتيه راكعًا، وشبك كفيه أمام وجهه صائحًا:

- الرحمة! لِمَ تُخيفني أيها الشبح المرعب؟!

رد الشبح:

- يالعقلك الدنيوي.. أتؤمن بوجودي أم لا؟

- أومن.. عليَّ أن أومن بوجودك، لكن لِمَ قد تعود أشباح الموتى لتجوب الحياة الدنيا؟ ولِمَ تعود لي أنا بالذات؟!

- هذا دَين الإنسان، أن تجوب روحُه في جسده وسط رفاقه، وتسافر شرقًا وغربًا، وإن لم يسدد المرء دينه في حياته، يظل مُعلقًا في عنقه ويُحكَم عليه أن يعود إلى عالم الأحياء ويهيم وحيدًا.. يا ويلي! عليَّ أن أشهد على كل ما بخلت به ولم أشاركه مع الأحياء.

مجددًا صرخ الشبح، وحرَّك أغلاله محاولًا انتزاعها بيديه. قال «سكروج» مرتعدًا:

- أنت مُقيَّد.. لمَ؟

- مُكبَّلٌ أنا بالأغلال التي صُغتها في حياتي.. صنعتها حلقةً حلقة، ويارداةً ياردة.. تمنطقتُ بها بإرادتي الحُرة. هل تبدو غريبة بالنسبة لك؟

ارتعد «سكروج» أكثر وأكثر. أردف الشبح:

- هل تعرف وزن أغلالك التي تصنعها بيديك لنفسك وطولها؟ نفس وزن أغلالي وطولها.. منذ سبعة أعياد ميلاد مضت وأنا أعانيها وأعاني ما تفعل بي.. أغلال ثقيلة هي.

نظر «سكروج» إلى الأرض من تحته، ظانًّا أنه قد يرى أغلاله الشبحية الخاصة، لكنه لم يرَ شيئًا. توسَّل «سكروج» هاتفًا:

- جايكوب، جايكوب مارلي العجوز، أخبرني بالمزيد.. أرِحْ بالي!

- لا أملك راحةً لي ولا لك.. إيبنزر سكروج، الراحة في عالمي تأتي من مصادر مختلفة لأناسٍ غيري وغيرك. عن نفسي، فأنا لا أجد راحةً ولا مُستقرًّا ولا يسعني العالم بأكمله؛ فروحي لم تجُبِ الحياة وترى أبعد من مكتب المحاسبة.. حياتي المُنهَكَة البغيض تمتدُّ أمامي ولا أرى أبعدَ منها.

كعادة «سكروج» عندما يتوتَّر، دس كفيه في جيبيه مُفكرًا فيما قاله الشبح دون أن يرفع عينيه عن الأرض أو يقوم من ركوعه.

قال «سكروج» بطريقةٍ عملية تحتمل الاحترام والإهانة معًا:

- يالبطئك يا جايكوب.

- بطئي؟!

- أجل.. سبع سنوات منذ مُتَّ، وتعود لي الآن؟!

- كنتُ أجوب العالم وأُعذَّبُ بلا كلل، بلا راحة ولا سلام.. ندم طويل مستمر لا ينقطع.

- وهل تسافر سريعًا من مكان لآخر؟

- على جناح الريح.

- لا بد من أنك تعذَّبت كثيرًا في تجوالك طيلة سبع سنوات، ورأيت كثيرًا.

عند سماع الشبح ما قال «سكروج»، صرخ مرة أخرى، وصلصلت أغلالُه صادحةً في وسط صمت الليل.

- يالأغلالي الثقيلة! ما يكدُّ فيه الفانون في الحياة الدنيا يرتحلُ معهم إلى آخرتهم، مُقدِّمًا الأفعال الخيِّرة لتشفع لهم. وكل روح مسيحية تحيا على هذه الأرض وتفعل الخيرات، تجدها في آخرتها. بعد الموت، لا مُتسع للندم ولا فرصة لتعويض ما فات من فرص أضعناها.. ليتني أستطيع التعويض! هكذا كنت من زُمرة المفسدين!

- لكنك كنت رجلَ أعمالٍ ممتازًا يا «جايكوب»..

بدأ «سكروج» يتحدَّث للشبح وكأنما يبرِّر لنفسه ويبحث لها عن مفرٍّ من عذابٍ أبديٍّ. صرخ الشبح مُلوحًا بيديه:

- أعمال؟! كان لا بُدّ للإنسانية وفعل الخيرات والرحمة من أن يكونوا عملي وشغلي الشاغل.. عملي في التجارة لم يكُن ليمثِّل قطرةً في محيط أعمالي الدنيوية! لم يكُن ليمثِّل أكثر من هذا.

جذب شبحُ «مارلي» سلاسلَه على امتداد ذراعه وكأنما هي سبب شقائه، ثم رماها إلى الأرض مجددًا مُردفًا:

- في مثل هذا اليوم من كل عام، ينالني عذابٌ مقيم وأذكر كيف كنت أسير بين الناس خافضًا بصري عنهم، لا أرفعه أبدًا حتى لأرى النجمة المباركة التي تُرشِد الرجال إلى منازل الفقراء. ضللتُ عن الفقراء ومنازلهم.. ضللت.

ارتعب «سكروج» لسماع الشبح يتحدَّث بتلك الطريقة، وبدأ يصيح بكلمات مُختلطة مُرتبكة. صرخ الشبح:

- اسمعني! قارَبَ وقتي على النفاد.

رد «سكروج»:

- سأسمعك، لكن لا تقسُ عليَّ يا «جايكوب»، لا تُفزعني هكذا!

- ماذا لو قلت لك إنني ظللت أجلس جوارك لأيام وأيام دون أن تراني أو تشعر بي؟

كانت فكرةً غير مقبولةٍ نهائيًّا بالنسبة لـ«سكروج»، فكرة مرعبة أسالت العرق على جبينه، فمد يده يمسحه من فوق حاجبيه. أردف الشبح:

- لم يشفع لي هذا ولم يجعل اللهَ يقبل توبتي؛ لذا فأنا هنا الليلة لأحذِّرك، وأخبرك أن الفرصة ما زالت سانحة أمامك لتهرب من مصيرٍ كمصيري. اغتنمها يا «إيبنزر». اقبل استضافة الأرواح التي ستزورك، رجاءً اقبلها؛ فهي فرصتك الأخيرة.

- لطالما كنتَ صديقًا مُخلصًا لي.. شكرًا لك.

أخفض «سكروج» مُحياه كما فعل الشبح سابقًا وأردف بصوت باهت مرتجف:

- لكن، لا أظنني قادرًا على استضافة مزيدٍ من الأرواح..

- دون زيارتهم، لن تنجوَ من مصيري. سيأتيك أول زائر غدًا، في تمام الساعة الواحدة.

- أول زائر؟ ألا يمكن أن تزورني كل الأرواح معًا ولنُنهِ هذا الأمر سريعًا؟

- وستأتيك الروح الثانية في اليوم التالي في الموعد نفسه، والثالثة في اليوم الثالث عند حلول الثانية عشرة منتصف الليل. لا تتوقَّع أن تراني مرة أخرى، وتذكَّرْ جيدًا ما دار بيننا.

انتهى الشبحُ من آخر كلماته، وتناول ضمادته من فوق الطاولة وأعاد ربطها حول رأسه ضامًّا فكيه بعضهما إلى بعض. رفع «سكروج» رأسه إليه فوجد الشبح في مواجهته، مُنتصبًا، وأغلاله ملفوفة حول ذراعه.

ابتعد الشبح نحو النافذة، التي انفتحت من تلقاء نفسها، حتى إذا وصل الشبح إليها وجدها مفتوحة على مصراعيها. أشار الشبح لـ«سكروج» كي يقترب، ففعل الأخير حتى إذا بلغ مسافة خطوتين منه طلب منه التوقُّف عن السير. لم يكُن سير «سكروج» أو توقفه نابعًا من طاعته للشبح، وإنما من خوفه من تلك الأصوات المُنبعثة خلال النافذة. أصوات بكاء وعويل وانتحاب، سرعان ما صاحبها الشبح ببكائه وصراخه، وخرج طافيًا عبر النافذة إلى الليل البهيم بالخارج.

هرع «سكروج» نحو النافذة مدفوعًا بفضوله، ونظر خارجًا. الفراغ مزدحِم بالأشباح القلقة التي تَحُوم هنا وهناك في حزنٍ وأسى، تنتحب في سريانها عبر الهواء، جارَّةً أغلالًا مثل أغلال شبح «مارلي»، بعض تلك الأغلال تصل أشباحًا بأخرى في شبكة مريعة لا فرار منها.

تعرَّف «سكروج» إلى بعض تلك الأشباح، وبخاصَّةٍ ذلك الشبح السمين المربوط إلى كاحلة خزانة حديدية ضخمة. كان يبكي ويصرخ كونه غير قادر على مساعدة امرأة فقيرة ورضيعها، تقف عند عتبة أحد الأبواب في الشارع.

كان الأسى الذي يجمعهم سببه الندم على انقطاع عملهم، وعجزهم عن التدخُّل في أيٍّ من شؤون الدنيا، أو التعويض عمَّا فعلوه فيها، فقد فقدوا كل قدرة لهم على التغيير للأبد.

سواء اختفت تلك الأشباح في الضباب، أو أن الضباب هو ما امتزج بها، فما رآه «سكروج» هو أنهم صاروا يختفون تدريجيًّا وتخفُت أصواتهم، وعاد الليل الهادئ كما كان في بدايته.

أغلق «سكروج» النافذة، وراح يفحص الباب الذي دخل منه شبح «مارلي»، فوجده مغلقًا بالمزاليج والأقفال. جذب الأقفال بعنفٍ فوجدها مُغلقةً لم يمس إحكامَها سوءٌ. حاول أن يصيح: «كلام فارغ»، لكنه توقَّف عند أول كلمة، ولم يعرف لِمَ توقَّف. أمن الخوف أم من إرهاق اليوم، أم من النظرة التي ألقاها على عالم غير مرئي، أم من حديثٍ مع شبح! بدلًا من البحث عن إجابة، خلد «سكروج» إلى فراشه ونام من فوره.

المقطع الثاني
أول الأرواح الثلاث

عندما استيقظ «سكروج»، كان الظلام لا يزال جاثمًا، ولم يستطِع حتى أن يتبيَّن زجاج النافذة الشفاف وسط الجدران المُعتمة. تعشَّم أن يخترق الظلمات بعينيه الحادتين حين دقت ساعة كنيسة مجاورة مُعلنةً الساعة الرابعة، ولم تتوقَّف عن الدقِّ حتى بلغت اثنتي عشرة دقة ثم توقفت! الساعة الثانية عشرة؟! حين ذهب إلى الفراش لم تكُن الساعة قد جاوزت الثانية مساءً، لا بد أن الساعة مُعطَّلة.

أمسك بساعته الثمينة العتيقة ليجد أنها هي الأخرى تعلن انتصاف الليل، فصاح:

- كيف؟! هذا مُستحيل! كيف يمكن أن أكون قد نمتُ يومًا كاملًا؟! ألا يمكن أن يكون ثَمَّةَ خطبٌ بالشمس وأننا في الثانية عشرة ظهرًا؟

كانت الفكرة مُقلِقة، فنهض من فراشه شاقًّا طريقه نحو النافذة، وكان عليه أن يمسح بخار الماء من على زجاجها بكُم جلبابه ليتمكَّن من رؤية أي شيء خلالها، ومع ذلك فلم يقدر على رؤية كثير عبر الضباب والبرد، لم يكُن ثَمَّةَ عابرون حتى، وكأنَّ الليل قد استولى على النهار واستحوذ على العالَم في قبضته المُعتمة.

على الرغم من ذلك، شعر «سكروج» براحة، فلو ساد الليلُ العالمَ، فلم يستطِع أحدٌ إحصاء الأيام، فلن يأتي يوم استحقاق دفع الضرائب أو الإيجارات أو المرتبات!

عاد «سكروج» إلى فراشه مجددًا، وراح يفكر، ويفكر، ويفكر.. ولم يتوصَّل إلى أي تفسيرٍ مقنع. كلما فكَّر حَارَ أكثر، وكلما تحاشى التفكير وجد نفسه مدفوعًا أكثر لتقليب الأمر على أوجهه!

أزعجه كثيرًا شبح «مارلي»، وكلما أقنع نفسه أن مرآه كان مُجرد حُلمٍ، عاد عقله واندفع إلى نقطة البداية مثيرًا التساؤل حول ما إذا كان مرآه حُلمًا حقًّا أم حقيقة.

استلقى «سكروج» مكانه حتى مرت ساعة إلا الرُبع، وتذكَّر فجأة أن شبح «مارلي» أنبأه بزيارة أول روح في تمام الساعة الواحدة. وجد «سكروج» حينها أن فرصته في النوم مجددًا قريبة من فرصته في دخول الجنة، فانتصب جالسًا في مرقده.

انقضى ربع ساعة آخر، غاب خلاله «سكروج» في غفوات قصيرات حتى فاتته ملاحظة أن تمام الساعة الواحدة قد حلَّ. انتبه مُنصتًا لدقات ساعة الكنيسة التي أكَّدت ظنه، وفجأة بزغ ضوء قوي أغشاه، وانفتحت ستائر فراشه.

وجد «سكروج» نفسه في مواجهة مع كيان غير أرضي، وكان قريبًا منه كقرب كتابي هذا منك.

كان تجسُّدًا يشبه الطفل، ويشبه كذلك رجلًا مُسنًّا في آنٍ واحد، كأنَّما روحُ طفل تجسَّدت على ملامح وسيط روحاني مُسنٍّ. كان طويل الشعر أبيضَه، كأنَّه عجوز شائب، ومع ذلك فوجه الكيان بلا أثر

لتجعيدة واحدة حول ملامحه.

أما جسد الكيان فكان يضجُّ بالشباب، ذو ذراعين مفتولتي العضلات، وكفين فولاذيتي القبضة. ساقاه وفخذاه كانت عارية؛ فقد كان يرتدي قميصًا ناصع البياض، ويحيط خصره حزامٌ فاخرٌ جميل. كان الكيان مُمسكًا بغصنٍ يانع أخضرَ، وتُكلِّل أطرافَ ثوبه الأزهارُ الصيفية. أما الأغرب في مظهره، فكان عمودًا من الضوء يتوِّج رأسه، وخوذة يحملها تحت ذراعه.

وعلى الرغم من هذا كله، لم يكُن كل ما رآه «سكروج» هو الأغرب؛ فحزام الكيان يلمع في موضع بعينه في لحظة، ثم يُعتم في ذلك الموضع ليلمع في مكان آخر. الكيان بالكامل كان دائم التشكُّل والتغيُّر؛ فتارةً هو بذراع واحدة، وتارةً بعشرين ذراعًا. تارة تراه كاملًا، وتارة ترى ساقين بلا أي شيء يعلوهما. كيان مُتغير ثابت في آنٍ واحد، فلا تدري بالضبط ماذا ترى وماذا يُخفي عنك.

سأل «سكروج» في وجل:

- أأنت الروح المُنتظر يا سيدي، الروح التي سترشدني؟

- أجل.

كان صوته رقيقًا عطوفًا، خفيضًا إلى حدٍّ بعيد، وكأنَّ مصدرَه بعيدٌ على الرغم من قربه. سأل «سكروج»:

- ما أنت؟ ومن؟

- أنا روح ماضي عيد الميلاد.

حدَّق «سكروج» في هيئة الكيان الماثل أمامه وتساءل:

- أماضٍ بعيد هو؟

- ماضيك أنت.

لو أنَّ أحدهم سأل «سكروج» عن شعوره في تلك اللحظة، لما أجاب ولا فسَّر سبب شعوره وقتها ورغبته؛ فكلُّ ما استحوذ على عقله هو رغبة شديدة في أن يرى الكيان مُعتمرًا خوذته، فترجَّاه أن يغطي رأسه.

تساءل الكيانُ مُستنكِرًا:

- أتريد أن تطفئ نوري بيديك الدنيويتين؟ ألا يكفيك أنك وأمثالك من صَنع تلك الخوذة وأجبروني على اعتمارها؟

أنكر «سكروج» سريعًا أيَّ نية لإهانة الكيان، وأي معرفة بكونه قد شارك في «تخويذ» الكيان في أي مرحلة من مراحل حياته، ثم سأل بوضوح عن سر زيارته له.

- مصلحتك!

حارَ «سكروج» في إيجاد منطق لكون إزعاجه بهذا الشكل في مصلحته، ولا بُدّ من أن الكيان قد سمع أفكاره، فأردف:

- غرضي إصلاحك إذًا، تنبيهك.

ربَّت الكيان بكفِّه القوية على ذراع «سكروج»، ثم قال:

- قُم، وتعالَ معي..

سيكون رجاء «سكروج» بلا طائل، لو تعلَّل ببرودة الجو وتأخُّر الوقت كي يفرَّ من مصاحبة الروح. فقام وانتعل خُفَّيه ومعطفه المنزلي وقلنسوته، فقبضة الكيان على الرغم من رقتها فإنه لا يمكن الإفلات منها أبدًا.

قاده الروح بعيدًا عن الفراش وأمسك بأطراف ثوبه يحثُّه على التقدُّم نحو النافذة. قال «سكروج» مُحتجًّا:

- لكنني فانٍ، ويمكن أن أسقط فأموت.

- بلمسة من يدي، ستتحمَّل كثيرًا..

مسَّ الكيانُ موضعَ قلب «سكروج»، ثم اقتاده عبر الحائط، ووقفا بعدها وسط طريق ريفي مفتوح، تمتد الحقول عن يمينه ويساره. المدينة اختفت بالكامل من حولهما دون أثرٍ يُرى، واختفى معها الظلام والضباب.

شبَّك «سكروج» كفيه وصاح ذاهلًا:

- إلهي! لقد نشأتُ في هذا المكان، عشتُ فيه طفولتي!

ظلَّ الروح ممسكًا بذراعه، ينظر إليه بهدوء. وشمَّ «سكروج» مئات الروائح تهيم حوله في الهواء، وتذكر آلاف التفاصيل والآمال والمُتَع التي نسيها منذ أمدٍ بعيد.

قال الروح:

- شفتاك ترتعشان. ما هذا الذي على خدك؟

غمغم «سكروج» بأنها مجرد بثرة، وترجَّى الروح أن يأخذه إلى حيث يريد بسرعة. قال الكيان:

- ستذكر الطريق؟

- أذكره؟! يمكنني السير خلاله مُغمض العينين.

- غريبٌ أنك قد تناسيته تلك السنوات كلها. لنذهب..

سارا عبر الطريق، وراح «سكروج» يتذكَّر كل بوابة وشجرة وصندوق بريد، حتى لاحت أمامهما سوق القرية ومن خلفها تبدَّت الكنيسة والجسر والنهر الجاري. اقترب منهما عددٌ من الأطفال يعتلون

ظهور خيولٍ صغيرة، يعدون بها وسط عربات الفلاحين. أطفال غاية في المرح والتفاؤل، يتصايحون وينشدون الأغاني المُفرحة التي تتراقص على أنغامها الريح ذاتها.

قال الروح:

- هذه ظلالُ ما قد كان، صورٌ لا تعي وجودنا.

عبر الراكبون بجوار «سكروج»، واستطاع أن يعرف كلَّ طفل منهم.. تساءل لِمَ رفرفتِ السعادة في قلبه لمرآهم؟ لِمَ التمعت عيناه بدموع الاشتياق لماضيه؟ لِمَ غمرت روحَه السعادةُ لسماع إنشادهم وتبادلهم التهاني بعيد الميلاد المجيد قبل افتراقهم، كلٌّ إلى منزله الدافئ البهيج؟ ما عيد الميلاد المجيد السعيد بالنسبة لـ«سكروج»؟ وما الفائدة التي عادت عليه من هذا كله؟!

قال الكيان الشبحي:

- الدراسة لم تتوقَّف بعدُ، وثَمَّةَ طفل وحيد مهجور هناك.

قال «سكروج» إنه يعرفه، وأجهش بالبكاء.

غادرا الطريق السريع عبر زقاق يذكره «سكروج» جيدًا، وسارا فيه حتى وصلا إلى منزل من الآجر، يعلوه مُحدِّدٌ لاتجاه الريح على هيئة ديك، معلقٌ فيه جرس. منزلٌ عتيق هو، حوائطه مُبتلَّة مكسوة بالطحالب، مكسورة نوافذه، متآكلة بوابته. تتصايح الدِّيَكة في حظيرته، بينما إسطبلات الخيول الخاوية يغزو أرضياتها العشب. هذا كله لا علاقة له البتَّة بما كان عليه المكان في الماضي.

دلفا إلى الردهة الواسعة، وأدار «سكروج» بصره بين الحُجُرات الخالية الباردة، التي تفوح منها رائحة التراب والخواء والهجر. عبر «سكروج» الردهة برفقة الروح إلى بابٍ في آخرها، فانفتح أمامهما من تلقاء نفسه كاشفًا عن حجرة واسعة حزينة كئيبة، خاوية إلا من مكتبٍ قديم متآكِل، يجلس إليه طفل يقرأ بجوار نار ضعيفة. جلس «سكروج» أمام التجسُّد حزينًا وراح يبكي نفسَه المنسية وما كان عليه في الماضي.

لم يكُن ثَمَّةَ صوت، ولا صدى يصدح في الأرجاء، ولا خربشات فئران خلف أخشاب الحائط، ولا صوتٌ لتقاطر الماء من الصنابير التالفة في الباحة الخلفية.. لم يشتِّت مشاعرَ «سكروج» وأسفه أيُّ صوت، ولم يكُن مجالٌ إلا لانتحابه فقط.

مسَّ الروحُ ذراعَه، وأشار نحو تجسُّده، الطفل المنكفئ على كتابه. فجأة رأى «سكروج» من خلال النافذة حطَّابًا بملابس أجنبية، بفأسٍ معلَّقة من حزام حول خصره، وبغلًا مُحمَّلًا بالأخشاب. صاح «سكروج» في نشوة:

- ماذا؟! هذا هو علي بابا! علي بابا الشريف العزيز.. أجل! أعرفه! في ليلة عيد ميلاد، بينما طفل صغير يمكث وحيدًا، جاء علي بابا كما جاء الآن بالضبط! أتذكَّر أخاه أورسون البرَّي، الذي قُتل في نومه عند بوابات دمشق. ألا تراه؟ والسلطانة، السلطانة التي قلب الجنيُّ عريسها رأسًا على عقب! يستأهل ما حدث، فكيف يجرؤ على التفكير في الزواج بسلطانة؟!

تحدّث «سكروج» بحماسِ طفلٍ رأى تجسُّد قصة خيالية أمامه، ولو رآه أحد زملائه في العمل ما تعرَّف إليه، ولا تعرَّف إلى صوته الذي صار حادًّا، متأرجحًا بين الضحك والبكاء.

صاح «سكروج» مُردفًا:

- والببَّغاء! جسده الأخضر وذيله الأصفر، وما يشبه الخس ينبت من أعلى رأسه! ها هو! روبنسون كروز التَّعِس، هكذا كان يناديه حين يعود إلى الأرض بعد رحلة بحريَّة طويلة.. يصيح: روبنسون كروز التَّعِس، أين كنتَ؟ ولِمَ غِبتَ؟ وهناك.. هناك يجري «فرايداي» نحو الجدول ويصيح: هالو! هوب! هالو!

فجأةً، تحوَّل الحماس الطفولي في صوت «سكروج» إلى حسرةٍ على نفسه الصغيرة وغمغم: طفل مسكين. وبكى مُجددًا.

مسح «سكروج» عينيه بكم سُترته، ودسَّ كفيه في جيبيه مُضيفًا في أسى:

- أتمنَّى لو كنت... لكنَّ الوقتَ قد فات الآن.

سأله الروحُ:

- ما بكَ؟

- لا شيء.. لا شيء. كان ثَمَّةَ ولدٌ يغنِّي ترنيمة عيد ميلاد عند بابي ليلة أمس، ليتني منحتُه شيئًا.

ابتسم الروح، ولوَّح بذراعه قائلًا:

- لنرَ ليلةَ عيد ميلاد أخرى!

صار تجسُّد «سكروج» الطفل أكبرَ سنًّا، وصارت الحجرة أكثر قتامةً وقذارة، وتكسَّرت النوافذ وتهدَّمت الأسقف. كيف حدث هذا بإشارةٍ من الروح؟ لا يعلم «سكروج» بقدر ما تعلم أنت عزيزي القارئ. كل ما كان يعرفه أن المشهد أمامه حقيقي، وأن التغيُّر الطارئ على المكان قد حدث فعلًا، وأنه كان وحيدًا عشيَّة عيد الميلاد مرَّةً أخرى، بينما كان كل الصبية والشباب يهرعون إلى بيوتهم الدافئة لينعموا بعيد ميلاد دافئ سعيد.

لم يرَ تجسُّد نفسه يقرأ، بل كان يسير جيئةً وذهابًا في يأس. أطرق «سكروج» رأسه وهزه يَمنةً ويَسرةً، ثم نظر في قلق تجاه الباب، الذي انفتح ودلفت منه طفلة أصغر بكثيرٍ من الشاب الصغير «سكروج». اندفعت الطفلة نحوه وأحاطت عُنقه بذراعيها وقبَّلتْه هامسةً:

- أخي.. أخي الحبيب.

انحنت الطفلة أمامًا وصفقت بكفيها ضاحكةً مُردِفة:

- جئتُ كي أعيدَك إلى البيت!

كرر الشاب الصغير:

- البيت؟ البيت يا «فان» الصغيرة؟

أجابت الطفلة في مرح:

- أجل! سأعيدك إلى البيت وستظلُّ معنا إلى الأبد. أبي صار أطيبَ مِمَّا كان، وبيتنا الجديد جنة. صار يحادثني برِفق ويعاملني برقَّة. وفي يوم قبل خلوده إلى النوم، تجرَّأتُ وسألتُه إن كان في إمكانه السماح لكَ بالعودة إلى البيت، وقد وافق! وها قد أرسلني مع السائق كي أعيدَك. أنت صرتَ رجلًا ولن تعود إلى العيش في مكان متهدِّم كهذا. المهم، سنقضي عيد الميلاد معًا وسيكون أفضل عيد ميلاد في العالم!

صفَّقَتْ بكفيها وضحكت، وحاولت أن تمسَّ خده لكنها كانت قصيرة، فضحكت مرة أخرى وهي تقف على أطراف أصابع قدميها كي تعانقه. جذبته في حماسة الأطفال نحو الباب، ولم يكُن أمامه ما يخسره، فتبعها.

صوت فظيع صدح من الردهة هاتفًا:

- أحضِروا صندوق السيد «سكروج» هنا!

وفي الردهة، ظهر ناظر المدرسة شخصيًّا، الذي راح يرمق «سكروج» بنظراتٍ وقور. أصاب الهول «سكروج» عندما صافحه الأخير، وصحبه هو وأخته إلى حجرة درس متسعة مزدانة بالخرائط ووسائل الإيضاح الفاخرة. قدَّم إليهما الكعك والمشروبات. كانت تلك أيام سعادتهما في المدرسة ولها دمعت عينا «سكروج» العجوز.

قال الروحُ:

- كائن هشٌّ رقيقٌ هي، لكن قلبها يسع العالم.

بكى «سكروج» قائلًا من بين عَبَراته:

- كانت كذلك، أنت مُحقٌّ. لن أجادل في هذا أيها الروح.

- ماتت شابة صغيرة، وكان لديها أبناء، أليس كذلك؟

قال «سكروج»:

- ابن واحد.

- أجل.. ابن أختك!

- وماذا بعدُ؟!

غادر «سكروج» والروح المدرسة، ودلفا إلى شوارع المدينة الخالية في الماضي، يسيران بين ظلال المارَّة وظلال العربات وكأنَّها ظلالُ مدينةٍ حقيقية صاخبة، يظهر من خلال زينة المتاجر أنها كذلك في موسم عيد الميلاد المجيد.

توقف الروح عند متجرٍ بعينه، وسأل «سكروج» إن كان يعرف هذا المكان. أجاب «سكروج»:

- أعرفه؟! لقد تدرَّبتُ هنا!

دخلا المتجر، ورأيا رجلًا يعتمر جُمَّة ويلزيَّة، يجلس خلف مكتبٍ عالٍ، حتى لو أن المكتب كان أطول ببوصتين فقط لمسَّ رأسُ الرجلِ السقفَ.

صاح «سكروج» في حماس شديد:

- هذا هو «فيتزويج» العجوز! بارك اللهُ قلبَه! «فيتزويج» عاد إلى الحياة مرة أخرى!

وضع «فيتزويج» قلمه أمامه، ونظر نحو الساعة التي كانت تشير عقاربها إلى السابعة. فرك كفَّيه معًا وعدَّل من هندامه، ثم صاح بصوته السمين الثمين:

- يو هو! «إيبنزر»، «ديك».. تعاليا!

رأى «سكروج» نفسه في سنِّ الشباب، يهرول مُسرعًا برفقة زميله المُتدرِّب. قال «سكروج» للروح:

- ديك ويلكنز، أنا مُتأكِّد! كان مُلازمًا لي دومًا.. «ديك» العزيز المسكين.

صاح «فيتزويج»:

- يو هو! كفاكما عملًا اليوم يا ولداي؛ فالليلة ليلة عيد الميلاد. عيد ميلاد مجيد سعيد يا «إيبنزر» ويا «ديك». لنغلق المتجر ولنُعدَّه للوليمة!

وصفَّق بكفيه الشحيمتين مُردِفًا:

- هلُمَّا قبل أن يأتي زبون آخر.

لن تصدِّق مهارة الشابين وتوافقهما في العمل معًا. هرعا إلى الشارع حاملَين غوالق الأبواب – واحد، اثنان، ثلاثة- رفعا الغوالق إلى أماكنها – أربعة، خمسة، ستة- وجذباها لتغلق المدخل – سبعة، ثمانية، تسعة- ثم عادا إلى أماكنهما قبل أن تنهي اثنتي عشرة عَدَّة، يلهثان كحصانَي سباق.

صاح العجوز «فيتزويج»:

- بارع يا «ديك»! ممتاز يا «إيبنزر»!

لم يكُن ثَمَّةَ ما لا يسع الشابين إنجازه في وقتٍ لا يُذكر. خلال دقائق كانا قد أغلقا المتجر ونظَّفا الأرضيات وأشعلا المدفأة، وأزاحا كلَّ ما يمكن إزاحته من أثاث نحو الحوائط، فصار المتجرُ لامعًا دافئًا، مُعدًّا لاحتفال ليلة عيد الميلاد المجيد.

ثم جاء عازفُ كمان مع كمانه، ودخلت زوجة السيد «فيتزويج» مع بناتها الثلاث مُبتسمات جميلات، تلاهُن ستة من الشباب المتيمين، يتوددون إليهنَّ بالكلمات والإيماءات المهذبة. ثم جاء كل العاملين في المتجر، والخدم والخباز والطاهية وأصدقاء أخيها، وبائع الحليب، حتى إنَّ صبيًّا مارًّا في آخر الشارع جذبته الأضواء فجاء مأخوذًا بالدفء والمحبة.

هكذا جاء الجميع من كل حدب وصوب، بعضهم مدعو، وبعضهم مُتسلل في خجل، وبعضهم مُتطفل شملته السعادة كأنَّه قريب. الجميع يتدافع، يتقارب، يتباعد في سعادة وأمان، وبدأ الجميع في الرقص على عزف الكمان، تمايلت الزوجات بين أذرع أزواجهن، وتراقص الشباب والشابات، وظل السيد «فيتزويج» يرمقهم في سعادة ورضا، حتى إذا انتهت المقطوعة الموسيقية صفَّق بكفَّيه صائحًا:

- ممتاز! أحسنتم.

مع بدء الموسيقى من جديد، قلَّ الراقصون على الساحة، وبدأ الطعام والشراب في الظهور على الموائد.. حلوى ولحوم متنوعة فاخرة بكميات ضخمة، تكفي القاصي والداني، وتغدق على الغني والفقير.

ثم قام السيد «فيتزويج» ليرقص مع زوجته، بصحبة عددٍ من كبار السن الآخرين. راحوا يرقصون في وقارٍ ومرح، تلتمع أرديتهم البرَّاقة كالأقمار أمام وهج النيران. عند دقات الساعة الحادية عشرة، وصل الحفل إلى مُنتهاه، ووقف السيد «فيتزويج» وزوجته، كلٌّ عند ناحية من ناحيتي باب المتجر، يصافحان ضيوفهما راجيين لهم عيدَ ميلادٍ مجيدًا سعيدًا.

وحين خلا المتجر، وتلاشى صخب الموسيقى والضحكات، صافح الزوجان «سكروج» الشاب ورفيقه، ورجوا لهما ليلة طيبة، وآوى كلٌّ منهما إلى فراشه عند مؤخرة المتجر.

خلال ذلك المشهد البهيج، ظل «سكروج» العجوز مأخوذًا مبهور الأنفاس، يحضر بقلبه وروحه الحفل، ويشعر بكل الابتهاج الذي شعرت به نفسُه في الماضي. كان يذكر كل شيء، ويتمتَّع بكل شيء كأنَّه في زمنٍ ما يراه، حتى خلد الشابان أمامه إلى النوم، فتذكر الروح المصاحبة له، وأدرك أنها كانت تراقبه طيلة الوقت بينما الضوء يسطع من أعلى رأسها. قال الروحُ:

- أشياء بسيطة، هي ما تجعل أولئك القوم مُمتنِّين.

صاح «سكروج» مُستنكرًا:

- بسيطة؟!

أشار الروحُ إلى الشابين اللذين ظلَّا يدعوان بكل ما أوتيا من إيمانٍ كي يكافئ اللهُ رئيسَهما على صنيعه، وعلى السعادة التي جلبها لهما. قال الروحُ:

- لقد أنفق بعضًا من ماله الفاني، أفلا يستحق تلك الدعوات المُخلصة؟

ردَّ «سكروج» وقد تقمصته روحه الشابة:

- ليس الأمر كذلك أيها الروح. لقد كانت طِيبة الرجل ونقاء روحه ومعاملته الطيبة هي ما يُسعدنا فيدفعنا إلى الدعاء له، وكانت أفعاله تضاهي الثروات في تأثيرها.

شعر «سكروج» بالروح يحملق فيه، فصمت. تساءل الروح:

- ماذا بك؟

- لا شيء.

أصرَّ الكيان وأضاف:

- تُفكِّر في أمرٍ ما، على ما أعتقد.

- أبدًا. كنتُ أودُّ لو قلتُ شيئًا لرفيقي هذا.. وددتُ لو أخبره كم أشتاق إليه..

رأى «سكروج» نفسه الشابة تطفئ المصباح، بينما تخرج أمنيته تلك من بين شفتيه. مجددًا صار «سكروج» العجوز والروح وحديهما وسط مكان مفتوح.

قال الكيان:

- وقتي شارف على النفاد، تعال.

لم يوجِّه الكيان مقولته لشخص بعينه، لكن نتج عنها تأثيرٌ مباغت؛ حيث رأى «سكروج» نفسه أكبر سنًّا كأنَّما في ريعان الشباب، ولم تكُن ملامحه قد طغت عليها استعلاء وصرامة سنواته التالية، وإن بدت على مُحياه بدايات الاهتمام بالمال وحُبه، وفي عينيه تبدَّت جذور الطمع والجشع التي نمت عبر السنين لتحتلَّ روحه.

لم يكُن «سكروج» الشاب بمفرده، بل في حضرة شابة في زِي حِداد، تغشى عينيها الدموعُ التي تلتمع في الضوء الصادر من روح عيد الميلاد في الماضي.

قالت بِرِقَّة:

- لم يعُد الأمر مهمًّا بالنسبة لك؛ فقد حل في قلبك حبٌّ غير حُبي. أرجو أن تجد فيه سعادتك.

تساءل «سكروج» الشاب:

- أيُّ حبٍّ؟

- حبٌّ ذهبي.. حبُّ المال..

- هذا حقي، وهذا هو العدل في هذا العالم! لا يوجد ما هو أشد قسوة من الفقر، ولا شيء يساوي الحياة من أجله إلَّا جني الثروة!

قالت بهدوء:

- أنت تخاف العالم أكثر من اللازم، وتخاف تقلُّباته. ذابت كلُّ آمالك في بوتقة أمل واحدٍ بعيدٍ عن كل فرصٍ للعتاب أو إعادة التفكير. شَاهَدت أنبلَ طموحاتك تهوي، واحدًا تلو الآخر، في بطن الجشع الذي تملَّكك. ألستُ مُحقَّة؟

تساءل «سكروج» مُستنكرًا:

- ثم ماذا بعد؟ كل ما في الأمر أنني صرتُ أكثر حكمة، ولم أتغيَّر من ناحيتك قط.

هزت رأسها، فسألها:

- هل تغيَّرتُ حقًّا؟

- عقدُ حُبنا عقدٌ قديم، أبرمناه عندما كنا فقيرين راضيين بفقرنا، آملين في تحسين أوضاعنا بالعمل والصبر. وحين أصابنا الثراءُ أصاب قلبك بوابلٍ جففه من كل مشاعر. لم تعُد أنتَ أنت، صرتَ شخصًا غريبًا لا أعرفه.

قال في نفاد صبر:

- كنت مجرد صبيٍّ حينها.

- قلبك يُحدثك بأنك لم تعُد كما كنت، ويحدِّثني بأنَّ القلب الذي احتوى حبَّنا لم يعُد بوسعه احتواء أي شيء سوى البؤس. فكرتُ كثيرًا في هذا كله، والآن أحررك من أي عقد بيننا.

- أنا لم أفكر في التحرُّر مِمَّا بيننا، هل تفوهتُ أبدًا بشيء كهذا؟

- شفاهية؟ لم تقُل شيئًا.

- كيف إذًا تقولين إنني أبغي الابتعاد؟

- عرفتُ عندما رأيتُكَ تتغيَّر، روحك تغيرت وحياتك تغيرت وآمالك تغيرت.. لم يعُد فيك شيء مِمَّا ألفتُه وأحببتُه. كل شيء فيك يُبعدني ويطردني خارج حياتك، فبعد ما أبعدتني تقول إنك تريدني؟

- ألا تظنين أنني أريدك؟

- كنت أرجو لو أوقن بالعكس.. في اللحظة التي تيقَّنت فيها أنك تزن كل شيء بالقنطار وتقيِّمه بالمال، عرفتُ أنك لن تصبر على الزواج بفتاةٍ مثلي؛ لذا، فأنا أحرِّرك من علاقتنا من أجل الحب الذي كان بيننا.

كاد يتكلم، لولا أنها أشاحت بوجهها عنه مُردفةً:

- أرجو لك السعادة في الحياة التي اخترتها.

ثم افترقا.

قال «سكروج»:

- أيها الروح، لا أريد أن أرى مزيدًا، أعدني إلى بيتي! لِمَ تُعذبني؟!

- ذكرى واحدة أخرى من الماضي، وسأعيدك إلى بيتك.

- كفاني! لا أريد أن أرى شيئًا!

أمسك الكيانُ ذراعَي «سكروج» وأجبره على النظر إلى ما سيتجسَّد أمامه تاليًا.

من حولهما تبدّى مشهد آخر، حجرة متوسطة الحجم، مُريحة. بجوار المدفأة، جلست شابَّة ظنها «سكروج» نفسها التي كانت معه في الذكرى السابقة، لكنها كانت أكبر سنًّا وأمامها تجلس ابنتها.

تصاعدت الضوضاء من أرجاء الحجرة التي انتثر فيها أطفالٌ فوق قدرة «سكروج» على العَدِّ. وعلى الرغم من كل هذا الصخب، لم تبدُ المرأة أو الفتاة مكترثتين، بل راحتا تضحكان من قلوبهما.

أدفع أي شيء كي أكون واحدًا من أولئك الصبية! لكنني مهما فعلتُ لم أصل إلى درجة الوقاحة التي يتمتعون بها، فيمزقون ضفائر الفتيات، ويقتلعون أحذيتهن الصغيرة في أثناء اللعب. لا، لن أكون وقحًا إلى هذا الحد أبدًا! على الرغم من أمنيتي أن أكون طفلًا، كنت آمل كذلك لو أكون شابًّا، أحيط خصر الشابة الجميلة الجالسة أمام المدفأة بذراعي ولا يهمني إن لم تعُد لي ذراعي ولم تُفرَد من بعد طول انثناء. كنت لأقرَب تلك الشفتين المُنفرجتين، وأتمتّع بمرأى عينيها الخجولتين المظللتين بالأهداب.. كنت أتمنَّى لو أكون طفلًا فأعيث في جمالها، وشابًّا لأقدِّره حق قدره.

فُتح الباب، فرفعت وجهها إلى الداخل عليهم، وانطلقت إليه وسط صخب الأطفال. كان أبًا عطوفًا مُحمَّلًا بهدايا عيد الميلاد. تعلَّق الأطفال بأبيهم وراحوا يجذبون ملابسه في محبة وسعادة، وراح هو يُخرج الهدايا من جيوب معطفه ويُغدق بها عليهم. تصاعدت أصوات المفاجأة والفرحة مع كل هدية يفضُّون غلافها. طفل منهم وضع مقلاة بلاستيكية صغيرة في فمه، وقد كان من قبلُ قد ابتلع لُعبة على هيئة ديك حبشيٍّ ملتصقٍ بطبقِه!

ياللنشوة والسعادة والامتنان التي أخلد بها الأطفال في نهاية اليوم إلى مضاجعهم، وكأنهم قد أخرجوا مشاعرهم التي خزنوها طيلة السنة وصبُّوها على أبيهم الحنون، وناموا هانئين راضين بعدها.

صار «سكروج» أكثر انتباهًا عندما جلس ربُّ البيت بين ابنته وزوجته أمام المدفأة، وأحاطهما بذراعيه، وسمع الفتاة تهمس: أبتاه! فأعتمت عينا «سكروج» للحظات.

قال الرجل مُلتفتًا نحو زوجته:

- «بيلا»، قابلتُ صديقًا قديمًا لكِ اليوم.

- ومن هو؟

- خمِّني!

- وكيف لي أن أخمِّن؟ لا أعرف.

ثم أضافت ضاحكةً حين رأته يضحك:

- لعلَّه «سكروج»؟

- بالفعل، هو السيد «سكروج»! مررتُ من أمام نافذة مكتبه، وبالكاد رأيته، فقط كان يُشعل شمعة واحدة فقط بالداخل. سمعت أن شريكه في العمل يُحتضر، بينما هو جالس في مكانه هذا وحيدًا في هذا العالم كما أعتقد.

صاح «سكروج» العجوز بصوت مكسور:

- أيها الروح! أبعدني عن هذا المكان!

- قلتُ لك إن ما تراه هو مجرد ظلال من الماضي، وأنا أريك إياها كما كانت، لا ذنب لي فيما حدث، فلا تلُمني!

صرخ «سكروج»:

- أبعدني عن هنا! لا أستطيع الاحتمال أكثر!

والتفت «سكروج» نحو الكيان، الذي راح يُطالعه بوجهٍ هو خليط من كل الأوجه التي رآها في رحلته معه.

ظل «سكروج» يصرخ:

- دعني وشأني، كُف عن مضايقتي وأعِدْني إلى بيتي!

تزايدت شدة الضوء المُنبعث من قمة رأس الروح، حتى أعمت «سكروج» ثوانيَ. اختطف «سكروج» خلالها الخوذة من تحت إبط الروح ووضعها على رأس الروح وضغطها بشدة. ركع الروح تحت ضغط «سكروج» القوي، ومع ذلك، لم تفلح الخوذة في إعتام الضوء القوي الذي تسرَّب من تحتها مُضيئًا الأرض حولهما.

فجأة أدرك «سكروج» أنه مُرهَق، وأدرك كذلك أنه في حجرته بمنزله ولا أثر للروح ولا للخوذة بين يديه. ببطء ويأس سار نحو فراشه وغاص في نوم عميق.

المقطع الثالث
ثاني الأرواح الثلاث

استيقظ «سكروج» مُقاطعًا وصلة شَخيرٍ استثنائية، وقام جالسًا في سريره محاولًا استجماع شتات أفكاره.

عرف «سكروج» فورًا أن الساعة هي الواحدة بعد مُنتصف الليل مرة أخرى، وأنه غاب عن الوعي يومًا كاملًا، وعليه الآن لقاء الروح الثاني التي أخبره عن قدومها الفقيد جايكوب مارلي.

شعر ببرودة وهو يتقلَّب في فراشه، مُتسائلًا عن أيِّ مَدخل من بين ستائره سيدخل منه الروح القادم. فأزاح كل ستار بنفسه كي لا يُفاجَأ مرةً أخرى فيهلع، ثم تمدَّد مُجددًا مُسددًا نظراتٍ مُتفحصة إلى زوايا السرير. فلم يكُن يريد أن يباغته الروح ويوقعه في الذعر.

السادة أشباه «سكروج»، يظنون أنهم قادرون على الكشف عن المستور بنظرة أو اثنتين، وكأنَّ العالم من حولهم عالم مادي بحت فقط. ظنَّ «سكروج» أنه مُستعد تمامًا لمُجابهة أي شيء، ابتداءً من مجرد طفل صغير، إلى وحيد قرن شرس، بلا أي ذهول أو تردُّد أو خوف.

على الرغم من ظنِّه أنه مستعدٌّ لأي شيء، لم يكُن بالفعل مستعدًّا لأي شيء. وعندما أعلنت الساعة الواحدة ولم يحدث ما ينتظر، انتابته رعدة مُستمرة. مرت خمس دقائق.. عشر دقائق.. مرت قُرابة ربع الساعة ولم يظهر شيء بعدُ. ربع ساعة أمضاه «سكروج» في الفزع من أي مصدر للضوء، ومن آلاف الظلال التي بدت كأرواح مُحتملة. لم يكُن قادرًا على استنتاج ماهية أي شيء. لكنه بعدُ، لا يزال يعاني ضوءًا لامعًا متراقصًا لا يستطيع تحديد مصدره.

رسا ظنُّ «سكروج» على أن من يعرفون ما يجب عمله هم الأشخاص غير المتورطين في الموقف المُوتِّر المُرعِب. وعليه أن يبتعد عن المشهد قليلًا كي يفهم أبعاده؛ لذا فقد قام «سكروج» مُنتعلًا خُفَّيه، وسار نحو الحجرة المجاورة التي يعتقد أن فيها مصدر الضوء الغريب. بمجرد أن وضع «سكروج» كفه على مقبض الغرفة، سمع صوتًا غريبًا يناديه باسمه آمِرًا إياه بالدخول، فأطاع.

كانت الحجرة هي حجرته بلا شك، لكن طرأ عليها تغيير عظيم. كانت الجدران والأسقف مُغطاة بلون أخضر يانع، وكأنَّها تحوَّلت بُستانًا. ومن بين أرجائها التمع التُّوت، وعكست أوراقُ اللبلاب الضوءَ فأشرقت كأنَّها شظايا مرآة متناثرة.

اندلعت النيران بهيَّةً في المدفأة، كما لم تندلع قط في زمن «سكروج» أو «مارلي»، أو في أيٍّ من مواسم الشتاء المُنصرمة.

وعلى الأرض، رأى «سكروج» أكوامَ طعام من الديوك الحبشية، والإوز، واللحوم، والنقانق، والكستناء الدافئ، والكعك اللذيذ، وحلوى البرقوق، وغيرها من صنوف الطعام الشهية التي أعتمت أجواء الحجرة إثر البخار المُتصاعد منها.

وعلى الأريكة، في صدر الحجرة، جلس عِملاقَ مَرِح، يرفع مِشعلًا إلى أعلى، مُضيئًا به الأرجاء، مُسلِّطًا ضوءه على وجه «سكروج» الذي دخل الحجرة يسترق النظر.

صاح الروح العملاق:

- تعالَ! تعالَ وتعرَّف إليَّ يا رجل!

اقترب «سكروج» مُطرِقًا رأسه أمام ضيفه، فلم يعُد «سكروج» عنيدًا كما كان، وعلى الرغم من الطيبة المُتبدية في عينيِ الروح، فإنَّ «سكروج» لم يقدر على النظر إليهما مباشرة.

- أنا روح عيد الميلاد الحالي.. انظر إلي!

نظر إليه «سكروج» مُوقِّرًا، ورأى أنه يرتدي رداءً واسعًا أخضرَ اللون، مزدانًا بفراء أبيض. بفتحة صدرٍ مُتسعة يتبدَّى منها ثدياه العملاقان. ومن تحت ذيل ثوبه، ظهرت قدماه حافيتين ضخمتين. أما رأسه فكان مُحاطًا بإكليل تتدلَّى منه رقاقات الثلج اللامعة، مُتألِّقة عاكسة للأضواء عند حركته. من تحت الإكليل كان شعره بُنِّيًا طويلًا مُجعَّدًا.

بوجهه الصبوح، وعينيه اللامعتين، ويده المبسوطة، وصوته المرح، أشاع البهجة في الأرجاء، وأزال رهبة «سكروج» من مرأى غمد سيف معلَّق حول خصره، فلم يكُن بداخله سيفٌ من الأساس.

صاح الروح:

- لم ترَ مثيلي من قبلُ!

أجاب «سكروج»:

- مُطلقًا.

- ولم تقابل أعضاء عائلتي الأصغر! أعني: أنا صغير السن بالفعل، فلديَّ إخوة أكبر بكثير.

- الحقيقة أنني لم أقابل أيَّهم. ألديك إخوةٌ كُثُر أيها الروح؟

- أكثر من ألفٍ وثمانمائة!

غمغم «سكروج»:

- عائلة مهولة! من يُنفق على هؤلاء كلهم؟!

قام روح عيد الميلاد الحالي، فقال «سكروج»:

- أيها الروح، قدني إلى حيث تشاء، فقد صاحبتُ روحَ أمس مغصوبًا وقد تعلمتُ منه درسًا قاسيًا؛ لذا، سأترك لك اليوم الدفة، ولئن كنت ستعلمني شيئًا، فلأنتفع به.

- أمسك ثوبي!

انصاع «سكروج»، وتمسَّك بالثوب سريعًا، فاختفت من حوله الأطعمة والزروع والحجرة بأكملها، ليجدا أنفسهما في صباح يوم عيد الميلاد، والناس في الشوارع يكحتون الثلوج من الطُّرُق ومن فوق أسقف المنازل، مِمَّا جعل منظر الثلوج المنهمرة من الأعلى والمكوَّمة على جوانب الطرقات منظرًا شائقًا بالنسبة للصبية.

كل شيء كان أسودَ مُقارنةً ببياض الثلج المُحيط بالنوافذ والبيوت، والمُكوَّم في صفوف عميقة إثر انغراس عجلات العربات المارَّة فيه.

كانت السماءُ قاتمة، تختنق شوارع المدينة الضيقة تحتها في رذاذ متطاير قذر نصف متجمد، تحرِّكه عجلات العربات، سرعان ما يهبط على الرؤوس كوابلٍ من السخام ناتجٍ عن مداخن المدافئ.

لم يكُن ثَمَّةَ شيءٌ مُبهِج في منظر المدينة، ومع ذلك كانت القلوب تغرِّد مرحًا وتضفي سمت شمس الصيف وأيامه على جهامة الشتاء. يتبادل الناس فوق الأسطح الزلقة المزاح، ويتقاذفون كرات الثلج ضاحكين صاخبين.

ما زالت متاجر بيع الدواجن نصف مفتوحة، ودكاكين باعة الفاكهة مزدانة ببهاء بضائعها، وسلال الفواكه والخضراوات تُوزَّع أمام الأبواب المُغلقة، تغمز هي الأخرى للمارَّة وتشاكس الأطفال، وتغازل الفتيات، وكأنَّ كلَّ شيء قد دبَّت فيه الحياة.

أما البقَّالون، ويالليبقالين! فقد شارفوا على غلق متاجرهم، لكن تستطيع أن ترى من خلال فرجات أبواب محلاتهم الموازين تتمايل وتغنِّي، وتتقارع الأوعية الزجاجية في مرح، وتتمازج روائح الشاي والقهوة مُداعِبةً الأنوف، وسط أعواد القرفة المستقيمة واللوز الناصع والزبيب الذهبي، وقطع الفواكه المُجففة المغلفة برحابة السكر، التي تذيب أعتى القلوب، وتلين أشد الأنفس قسوة.

كل شيء شهي بهي في ثوب عيد الميلاد المجيد.

يتدافع الزبائن كي يحصلوا على بضائعهم قبل أن تُغلَق المتاجر، يتدافعون ويتشاكسون ويضحكون على تصرُّفاتهم، ويعشِّمون أنفسهم بليلة دافئة وسط الأهل والأحبَّة.

ثم جذبت أبراجُ الكنائس أفئدةَ الناس، فأتوا متدفِّقين من أعماق الشوارع، في أبهى حُلَلِهم، بينما راح المساكين يطوفون على المخابز لطهي أطعمتهم البسيطة، يتدافعون ويصرخون في غضب، فوقف روح عيد الميلاد الحالي، وراح ينثر البخور من مشعله السحري العجيب على طعامهم وملابسهم، فزاد الطعام، وهدأ التدافع، وزالت الجهامة والقلق من على الوجوه تمامًا.

ثم توقَّفت أجراسُ الكنائس، وأغلق الخبَّازون دكاكينهم على ما يطهون بداخلها، وراح بخار الطهي يترسَّب من تحت الأبواب فأعطى انطباعًا بأن أحجار الطريق تُطهَى هي الأخرى.

سأل «سكروج» وهو يراقب هذا كله كطفل مبهور:

- هل سيُضفي ما أضفته من مشعلك على طعام الناس نكهة معينة؟

- أجل.. نكهتي!

- ونكهتك هذه ستَضفَى على أيِّ طعامٍ يُطهى هذه الأيام؟

- فقط الطعام الممنوح للمساكين والمُحتاجين.

- ولِمَ الممنوح للمساكين والمحتاجين بالذات؟!

- لأنهم أكثر مَن يحتاجون إلى تلك النكهة.

بعد هُنيهة صمت، قال «سكروج»:

- أيها الروح، أنت تحرمهم من نشواتهم الصغيرة!

- أنا؟!

- أجل، فما ذنبهم كي يشتهوا نكهة روح عيد الميلاد طيلة العام فلا يجدوها؟ بل إنه بسببك، ستُغلَق المحال فلا يذوق الناسُ الزادَ إلا بعد أسبوع!

- أتظنني أقصد ذلك؟

- اعذرني لو كنتُ مخطئًا، لكن الناس سيغلقون المحال بحجة روح عيد الميلاد المجيد، أي بسببك أو بسبب واحد من عائلتك.

ردَّ الروح:

- الكثير من أمثالك يسيئون فهمي، وفهم ما يحدث بسببي، أولئك يعميهم الطمع والنيات السيئة والكراهية والحقد والأنانية عن رؤية حقيقتنا. فليلوموا أنفسهم على سوء أعمالهم ولا يلوموني!

وعده «سكروج» بأنه سيلوم نفسه، ثم سارا خفيين كما كانا في طرقات ضواحي المدينة، ولاحظ «سكروج» منذ أن كانا عند الخبَّاز، أنه على الرغم من ضخامة الروح، فإنه يستطيع تغيير حجمه ليلائم أي مكان مهما صغر. هو مخلوق خارق على أي حال.

أمسك «سكروج» بطرف رداء الروح، وانتقلا معًا حتى وصلا إلى مسكن كاتب «سكروج»، «بوب كراتشيت»، وبدأ روح عيد الميلاد الحالي في مباركة أرجاء المنزل بشعلته السحرية، وتعجَّب «سكروج» من مباركته، فلم يكُن «بوب» فقيرًا أو مسكينًا حتى يُمنحَ البركة، فقد أعطاه «سكروج» للتوِّ مالًا قبل انصرافه من المكتب، فما حاجته إلى البركة؟!

رأى «سكروج» زوجة «كراتشيت» ترتدي فستانًا بسيطًا بمساعدة ابنتها، وبدأ بيتر كراتشيت، ابن السيد «كراتشيت»، في تقليب البطاطس في القدر. فشم رائحةَ الطعام أخواه الصغيران، فعادا إلى البيت مستمتعين بروائح البصل والمريمية والتوابل. راح الصغيران يتراقصان حول المائدة، وارتفعت معنويات «بيتر» إلى السماء، وظلَّ يحرِّك الطعام في الوعاء منتظرًا تمام نضجه.

قالت السيدة «كراتشيت» لأبنائها:

- أين أبوكم الغالي؟ وأين أخوكم «تايني تيم»، و«مارثا»؟ دائمًا ما تتأخَّر كعادتها.

في أثناء حديثها، ظهرت فتاة تهتف:

- ها هي «مارثا» يا أمي! ها أنا قد وصلت.

ردَّد الصغيران:

- ها هي «مارثا» يا أمي! «مارثا»، يالها من إوزَّة تلك التي نطهوها!

قبَّلتها السيدة «كراتشيت» قرابة المرات العشر وأخذت منها شالها وغطاء رأسها وهي تقول:

- لِمَ تأخرتِ هكذا يا عزيزتي؟!

- كان عليَّ إنهاء عملي قبل الإجازة.

- لا يهمك، ما دُمتِ جئتِ بالسلامة. اجلسي أمام النيران يا حبيبتي واستمتعي بالدفء.. فيباركك الله.

تصايح الطفلان:

- كلا كلا، لا تجلسي.. اختبئي، فأبونا قد وصل! اختبئي يا «مارثا»!

دخل الأب مُسندًا «تايني تيم»، الملتف بغطاء سميك متسخ الأطراف من بقايا الثلج القذر في الشارع. وكانت ساقا «تايني تيم» مُدعمتين بدعائم حديدية، لكنه كان يسير عليهما متكئًا على عكازة.

تساءل بوب كراتشيت وهو يتلفَّت حوله:

- أين «مارثا» حبيبتنا؟!

قالت السيدة «كراتشيت»:

- لم تأتِ.

هتف «بوب»:

- لم تأتِ؟!

اهتاج «بوب»؛ فقد كان مُتعبًا طيلة اليوم، وقد عاد للتوِّ من الكنيسة مع ابنه، وقد استطاع الفتى أن يسير على قدميه بفضل بركة اليوم المقدَّس. أردف:

- لم تأتِ «مارثا» في ليلة عيد الميلاد المجيد؟!

لم تتحمَّل «مارثا» أن تراه مُبتئسًا هكذا، حتى لو كانوا يمازحونه، فخرجت من خلف باب مغلق وارتمت بين ذراعيه، بينما قاد الصغيران «تايني تيم» إلى جوار الطعام، حيث يستطيع سماع أصوات طهوه في القدور.

قال بوب كراتشيت في مرح:

- انظرا إلى ساقي أخيكما.. لقد تحسَّن كثيرًا. لطالما آمَن ببركة المسيح الذي يبرئ الأكمه والأبرص والأعمى.

عمَّ الأمل والبشر صوت «بوب» وهو يحكي لهم، وقد كان مؤمنًا أن ابنه سيتحسَّن ويُشفى. صدح صوت عُكازة «تيم» وهو يسير منتقلًا إلى كرسيه بجوار النار، مصحوبًا بأخويه.

شمَّر «بوب» عن ساعديه وراح يخلط الليمون و مشروب الجِن الكحولي معًا ويحرِّكهما في قِدْرٍ على النار، بينما ذهب الأطفال ليحضروا الإوزَّة وعادوا بها في موكبٍ مرح.

ذلك الحماس كله سيدفعك إلى الظنِّ أن الإوزة طائر نادر مثلًا، أو ظاهرة لا تحدث إلا قليلًا، إلا أن وجود الإوز أمر مألوف على مائدة السيد بوب كراتشيت، ومحبوب كذلك.

هكذا راحت السيدة «كراتشيت» تحضِّر صلصة التغميس، وهرس «بيتر» البطاطس بقوة وعنفوان، وأضافت الآنسة «بليندا» السكر على صلصة التفاح، ونظَّفت «مارثا» الأطباق، بينما اصطحب «بوب» «تايني تيم» إلى كرسي بجوار كرسيه عند رأس المائدة، وأضاف الطفلان المقاعد حول الطاولة ولم ينسيا أن يُضيفا مقعدين لأنفسهما، اعتلياهما فورًا وراحا يدُسَّان ملاعق الطعام في فميهما قبل أن يجلس الجميع.

أتموا تجهيز الوليمة، وتلوا صلاةَ شُكرٍ، وبدأت السيدة «كراتشيت» في تقطيع الإوزة وسط صيحات التلمُّظ والاستحسان.

لم يذُق «بوب» إوزَّة بهذا التميُّز من قبلُ، فقد كانت مثاليَّة من جميع الجوانب، وقد أتت العائلة عليها فورًا حتى آخر ذرَّة من عظامها، وقد نال كل منهم ما يكفيه ويزيد بمعجزة ما.

رَفعت الآنسة «بليندا» الأطباق، وخرجت السيدة «كراتشيت» قَلِقةً وحدها من الحُجرة كي تجلب حلوى البودنج. ظلت تُفكِّر في كل الاحتمالات السيئة التي قد تحرمهم مُتعة الحلوى الشهية، وتساءلت إن لم تصنع منها ما يكفي. ربما تسقط منها الأطباق قبل تقديمها، ربما تسلل أحدهم من الباحة الخلفية للمنزل وسرق الحلوى، بينما هم مشغولون بالإوزة. الاحتمالات المُرعبة كلها كانت ممكنة.

مرحى!

ياللبُخار الشهي الذي تصاعد، إذ أخرجت السيدة «كراتشيت» الحلوى من المِرجل. رائحة بيت سعيد دافئ آمن.

خلال نصف دقيقة، كانت السيدة «كراتشيت» قد عادت مُحمرة الوجه، فخورًا، بحلوى البودنج اللامعة المُرقطة، المُزيَّنة بفرع صغير من شجرة الإيلكس المُباركة.

هتف السيد «كراتشيت»:

- ياله من بودنج ممتاز!

وظل يرمقه في إعجاب، وكأنَّه إنجاز السيدة «كراتشيت» الذي يستأهل الفخر.

وقد زال أخيرًا التوتّر عن كاهلي السيدة، قالت إنها كانت قلِقة بشأن مقدار الدقيق المُستخدَم. كل فرد من أفراد العائلة شارك الباقين تعليقًا لطيفًا مرحًا حول جودة الحلوى، ولم يعلق أحدٌ قط على قِلة الكمية المطهوة مُقارنةً بعدد أفراد العائلة.

أخيرًا، انتهت الوليمة الصغيرة المُباركة، ونُظِّفت المفارش، وجُليت المناضد، وأُشعِلت النيران، ووضِعت حبات الكستناء كي تُشوَى على اللهب، وصُبَّ المشروب الدافئ الذي جهَّزه السيد «كراتشيت» مُسبقًا في الأكواب، واجتمعت العائلة في نصف دائرة حول النار.

قال السيد «بوب» في رضا:

- عيد ميلاد مجيد سعيد يا أحبائي.. فليباركم الله.

رددت العائلة ما قال، ثم أضاف «تايني تيم»:

- فليباركنا الله جميعًا.

كان جالسًا على كرسيه الصغير، مُلاصقًا لأبيه، داسًّا كفه الصغيرة في كفه، مُتمنيًا ألَّا يُفارق جلسته تلك للأبد، وكأنَّ هناك مَن سيسرق تلك اللحظة العزيزة منه.

قال «سكروج» في اهتمام لم يصدر عنه من قبل:

- أيها الروح، هل سيعيش «تايني تيم» على الرغم من مرضه هذا؟

- أرى مقعدًا شاغرًا، وعُكازة مهجورة هناك بجوار المدخنة. إن ظلَّت ظلال المرض تلك مكانها ولم يغيِّرها المستقبل، سيموت الصبي.

صاح «سكروج»:

- كلا! لا تقل هذا! أخبرني أن الصبي سيُشفى.

- إن ظلت ظلال المرض تلك مكانها ولم يغيرها المستقبل، فلن يقابل أحدٌ من عائلتي في المستقبل «تايني تيم». على أي حال، إن كان سيموت، فليمُت الآن وليُسهم في تقليل الكثافة السكانية.

رفع «سكروج» رأسه ليسمع كلماته الخاصة تُعاد على مسامعه على لسان الروح، وغشيه الندم والحزن.

قال الروحُ:

- لو كان في قلبك أي إنسانية، ولم تكُن بهذا العِناد، لاكتشفت حقيقة الفائض عن الحاجة من البشر كما تظن، وما هم إلا أمثالك، لا أمثال أبناء الرجال الطيبين مثل «تايني تيم»، ولم تكُن لتقرر مَن يعيش ومن يموت. إلهي! أسمعت قط عن حشرة تشكو قلّة الرزق بسبب كثرة الحشرات المتكدسة فوق أوراق الشجر بجوارها؟!

أحنى «سكروج» قامته أمام توبيخ الروح، ونكس ناظريه على التراب، لكن سرعان ما رفعهما عندما سمع اسمه على لسان «بوب»:

- أرجو للسيد «سكروج» البركة، فقد أقمنا وليمتنا مِمَّا أعطاه لي.

صاحت السيدة «كراتشيت» ساخرة:

- فعلًا؟! ممَّا أعطاه لك؟! ليته كان هنا لأطعمه جزءًا مِمَّا أظنه فيه، وأرجو أن يجد شهية لابتلاعه!

قال «بوب»:

- عزيزتي! الأطفال سيسمعونك! لا تنسي روح عيد الميلاد المجيد.

- أجل، عيد الميلاد المجيد؛ حيث سنشرب نخب رجل بغيض قاسٍ عديم الشعور مثل السيد «سكروج» هذا! أنت تعرف حقيقته يا «روبرت»، ولا يعرفه أحدٌ مثلما تعرفه أنت!

قال «بوب» في رفق:

- حبيبتي، اليوم يوم عيد الميلاد المجيد!

- سأشرب نخبه بالنيابة عنك، ولأجلك ولأجل اليوم المبارك لا لأجله.. عيد ميلاد مجيد، وعام جديد سعيد! لا شك لديَّ أنه سيكون سعيدًا على الرغم من كل شيء.

شرب الأولاد النخب بلا مرح أو حماس؛ فقد كان ذكر اسم «سكروج» بمثابة ذكر الشيطان بالنسبة لهم، ولطالما أضفت سيرته جهامة وكآبة عليهم.

بعد أن زال الضيقُ عنهم، عاد المرحُ أضعافًا مُضاعفة. وأعلن السيد «كراتشيت» أنه قد وجد لـ«بيتر» عملًا مقابل خمسة بنسات أو ستة في الأسبوع. ضحك الطفلان الصغيران لتخيُّلهما كيف سيبدو «بيتر» موظفًا، وشرد «بيتر» نفسه؛ إذ راح يحلم بالأشياء التي يمكنه أن يستثمر فيها ذلك المبلغ الضخم.

كانت «مارثا» تعمل لدى صانع قُبعات، وراحت تحكي لهم عن طبيعة عملها وعدد ساعاته، وكيف أنها تقابل لوردات وكونتيسات يأتون لشراء القبعات.

خلال حديثهم الدافئ، راحت جرَّة المشروب الدافئ وطبق الكستناء يدوران بينهم، وراحوا ينشدون أغنية عن طفل ضلَّ وسط الثلوج، وصدح صوت «تايني تيم» الرفيع، يغنِّي في إتقان ومرح.

لم يكُن ثَمَّةَ شيء مبهر في ذلك التجمع، فقد كانوا عائلة بسيطة الملبس، مهترئة الأحذية، رقيقة الحال، لكنها كانت عائلة سعيدة، ممتنَّة، شاكرة، أضفى عليها ضوء مشعل روح عيد الميلاد ألقًا خاصًّا.

ابتعد الروح، وابتعد معه «سكروج»، الذي لم يرفع عينيه عن «تايني تيم» حتى اختفى تمامًا عن نظره.

سار الروح و«سكروج» في الشوارع المظلمة، تحت انهمار الثلوج، وبين أنوار النيران المشتعلة خلف النوافذ. هذا كله كان خلّابًا، يشي بالدفء خلف الجدران، والولائم التي تُعدُّ بالمحبة والبركة، والأمان خلف الستائر المُسدَلة التي تقي العائلات برد الشوارع وظلامها. ما زال الزُّوَّار يتدفقون إلى المنازل، ويهرع الأطفال – على الرغم من البرد- إلى أقاربهم بأذرع ممدودة وصيحات مُرحِّبة.

لو فكرت وهلةً في أعداد الناس في الشوارع، لظننت ألَّا أحد في بيته ليستقبل زُوَّارًا، وعلى الرغم من ذلك، كانت البيوت عامرة مُرحِّبة، تُكدس الأخشاب والأمنيات الطيبة في المدافئ فتطيب بها رائحة الهواء.

ارتفع روح عيد الميلاد الحالي فوق أسقف المنازل، وكشف عن صدره وراح يوزِّع بكفه الضخمة البركات المُتلألئة في المداخن وينثرها في الأجواء، حتى عمَّت السعادةُ والدفءُ الجميعَ.

فجأة، ودون أي مُقدمات، وجد «سكروج» نفسه والروح عند ضفاف مستنقع كئيب، ومن حوله تناثرت الصخور الضِّخام، كأنَّها شواهدٌ لقبورٍ عمالقة. لم يكُن شيء ينمو في ذلك المكان سوى الطحالب. وفي الأفق كانت الشمس تغرب، مُخلِّفةً خطًّا من اللون الأحمر ينعكس على سطح الماء الآسن. غاصت الشمس أكثر فأكثر خلف خط الأفق وأفسحت للظلام مكانًا.

سأل «سكروج» الروح:

- ما هذا المكان؟

- مكان يعيش فيه عُمال المناجم، أولئك الذين يعملون في باطن الأرض. لكنهم يعرفونني، وسترى!

سطع ضوء من نافذة كوخ، وتقدَّم الروح و«سكروج» منه، مارين بسورٍ من الطين والأحجار. وجدا عند وصولهما جماعةً من الناس يجلسون حول النيران: رجل طاعن في السن، وزوجته، وأولادهما، وأحفادهما، وأحفاد أحفادهما.

ارتفع صوت العجوز فوق صوت الرياح العاتية، مُغنيًا أغنية عيد ميلاد، أغنية عتيقة كان يألفها منذ أن كان طفلًا، ومن وقتٍ لآخر كانت الجماعة تشاركه الغناء، يرتفع صوته بارتفاع أصواتهم، وينخفض بانخفاضها.

لم يتلكَّأ الروح في هذا المكان كثيرًا، ودعا «سكروج» كي يمسك بطرف ثوبه، وعبرا فوق المستنقع بسرعة الريح حتى وصلا إلى البحر.

نظر «سكروج» خلفه مذعورًا وهو يرى الأرض تنتهي، وتبتعد عنه، وأصمَّت أذنيه أصواتُ خرير الأمواج التي تكسَّرت على الشواطئ مُحاولةً تهشيم الصخور.

ثم لاح في الأفق فنار وحيد، تتسلَّق الطحالبُ جدرانَه الخارجية، وتدور حوله طيورٌ بحرية كأنَّما تولَّدت من الريح نفسها.

وحتى في وحشة مكان كهذا، جلس رجلان بجوار النار، يفركان أكفهما ويرجوان لبعضهما البعض عيدَ ميلادٍ مجيدًا. وجْهُ أكبر الرجلين كان مشوَّهًا بآثار الطقس القاسي وملح البحر، مُزينًا بمرح

الموسم المبارك.

زاد الروحُ من سرعته فوق البحر الهائج المظلم، حتى ابتعدا عن أي شاطئ مألوف، ووصلا إلى سفينة في عرض الماء. وقفا بجوار قائد الدفَّة، ورأيا ضباط السفينة في أماكن حراستهم، يغنِّي كلٌّ في موضعه ترنيمةَ عيد ميلاد، أو يفكر في العيد، أو يحكي لرفيقه موقفًا يذكِّره بأجواء عيد الميلاد.

وعلى اختلافِ مَن على سطح السفينة، فقد كان الجميع يحملون في قلوبهم مشاعر طيبة، بعضهم تجاه بعض، أكثر من أي وقت آخر من العام. الجميع مشتاق للأهل في الوطن، ولأجواء العيد في البيوت.

لقد كان ما رآه «سكروج» مثيرًا للغاية؛ ففي أثناء عبوره من فوق تلك الظلمات المنعزلة، وتلك الهاوية المجهولة التي تُخفي أسرارًا عُظمى كسِرِّ الموت، سمع ضحكة نابعة من القلب، وقد عَظُمت مفاجأة «سكروج» مِمَّا سمع عندما أدرك أن الضحكة هي ضحكة ابن أخته، ووجد نفسه بغتةً في حجرة مُضاءة دافئة، والروح بجوارِه، باسم، ينظر إلى ابن أخته نظرة ودودًا.

استمر ابن أخت «سكروج» في ضحِكه، ولكم وددتُ لو تعرفتُ إليه؛ فقد كان صاحب أصفى ضحكة سمعتُها في حياتي؛ فوجود ضحكة كتلك في العالم هو شيء مُنصف ونبيل. وفي مواجهة عدوى المرض والحزن، لا شيء يمكنه إشاعة عدوى البهجة سوى الضحكات وروح الدعابة.

عندما يضحك ابن أخت «سكروج»، فهو يُمسك بجانبي صدره، ويُميل رأسَه خلفًا، ويلوي ملامحه مُشكِّلًا ابتسامة طَلِقة خلَّابة. وكذا كانت تضحك خطيبته ورفاقهما في انطلاق ومرح وسعادة.

صاح ابن أخت «سكروج»:

- كان يزعم أن عيد الميلاد المجيد كلامٌ فارغ، بل كان مؤمنًا بهذا أي أيمان!

ردَّت ابنة أخي «سكروج» بجدية:

- عارٌ عليه يا «فريد».

ليبارك الله أولئك النسوة؛ فهن لا يفلعن شيئًا بإنصافٍ أبدًا، ودائمًا ما يأخذن الأمور بجدية مُبالغ فيها.

كانت جميلة للغاية، جمالها يفوق أي جمال آخر، ذات وجه صبوح وشفتين يانعتين خُلقتا للتقبيل. ولها عينان لا يملك بجمالهما مخلوق. على الرغم من جمالها، فإنَّها كانت مُستفزَّة إلى حدٍّ بعيد. بشكل عام، كانت فاتنة ولها قبول عظيم.

قال ابن أخت «سكروج»:

- رجلٌ عجوز هزلي هو.. هذه هي الحقيقة، لكنني لا أملك له كراهية.

لمَّحت ابنة أخيه قائلة:

- أراهن على أنه ثري للغاية يا «فريد». على الأقل هذا هو ما لمَّحت لي به.

- هو ثري، وثراؤه لا يُفيده في شيء؛ فهو لا يفعل ما يجلب له السعادة بماله هذا، حتى إنه لا ينفقه على نفسه، فهل نتوقَّع أن ينفقه علينا؟!

وافقت ابنة أخي «سكروج» وجميع النسوة الأخريات على ما قيل. أردف ابن أخت «سكروج»:

- أنا أُشفقُ عليه، ولا أستطيع أن أغضب منه حتى لو حاولت. الرجل يعاني أهواءه المريضة! كل تلك الترهات والأوهام في عقله تُمرضه وتدفعه إلى كراهيتنا، فيرفض أن يحضر عشاءنا. وما النتيجة؟ النتيجة أنه أضاع على نفسه أمسية جميلة من أجل أوهام توسوس له بأننا نطمع في ماله.

وافق الجميع مرةً أخرى على ما قال، وأكدوه وهم يلتفون حول المدفأة، ويحمل كل منهم طبق حلوى بين يديه.

أضاف ابن أخته:

- كل ما أردت قوله هو أنه خسر جلستنا الدافئة بسبب كراهيته غير المبرَّرة لنا. عمومًا، أرى أن سرَّ تعاسته هو فقدانه اللحظات السعيدة بسبب شكوكه المرضية، وفقدانه الصحبة التي تُبعد عنه أفكار السوء. فلن يجد أصدقاء في أقبيته المُتربة، ولا في مكتبه الكئيب. في كل عام أحاول منحه فرصة الصُّحبة، لكنه في كل عام يرفض. أنا أتحسَّر عليه فعلًا. ليس في يديَّ سوى أن أزوره في كل عيد، وأطلب منه أن يقضي ليلة عيد الميلاد معنا، حتى لو لم تُسفر زياراتي له إلا عن حثِّه منح كاتبه مالًا، فهذا مكسب في حد ذاته. أعتقد أنني نجحت في تحريك مشاعره أمس!

كان هذا هو دورهم في الضحك على نيته تحريك مشاعر «سكروج»! أما الشاب نفسه، فلم يكترث لسبب ضحكاتهم ما داموا يضحكون! وشجعهم على مزيدٍ من الضحك مُمَرِّرًا إليهم زجاجة نبيذ في مرح.

بعد تناول النبيذ ثم الشاي، بدؤوا سهرتهم الموسيقية بغناء جماعي متناغم، عزف خلاله ابن أخت «سكروج» على القيثارة ببراعة. ذكَّرت الأغنية «سكروج» بيوم أن عاد إلى مدرسته، أمس، مع روح عيد الميلاد في الماضي. رافقت الإيقاعات البسيطة عودةَ ذكريات أعوام مضت إلى ذهن «سكروج»، أعوام كان يحصد فيها طيب الحياة بيديه، ولا يدفنه بمجرفة الطمع كما دفن بوب مارلي.

لم تقضِ الجماعة المُبتهجة أمسيتها في الغناء فقط، بل بدؤوا في لعب ألعاب مُضحكة. من المفيد أن تعود طفلًا بعض الأحيان، ومن المُفضَّل أن تتمتَّع بروح الطفولة في ليلة عيد الميلاد المجيد بالذات.

لعبوا لعبة «الغُمِّيضة» ولاحظ «سكروج» أن مِن الشباب مَن كان مُعجبًا بابنة أخيه، فكان يتربَّص بالفرص التي تُمكِّنه من لمسها أو إضحاكها. راح الجميع يعدون ويضحكون، ويوقعون محاريك المدفأة الحديدية، ويتعثرون في الكراسي، ويتخفَّون خلف الستائر.

اندمج «سكروج» في مشاهدتهم حتى راح يضحك ويعدو ويتخفَّى، وكأنَّه وسطهم ينعم بدفء مرحهم. راقبه روح عيد الميلاد المجيد في رضا، وأبصر في عينيه رغبةَ طفل في اللعب والمرح حتى آخر الأمسية.

علي الرغم من ضحكات «سكروج» وصيحات اندماجه، لم يسمعوه حتى عندما كان يناديهم ويصيح بحلِّ أُحْجِيَّة ألقاها أحدهم، أو تصدح ضحكاته لدعابة أحد الحضور.

كان الروح راضيًا تمامًا عن المشاعر التلقائية الهاربة من العجوز البخيل، لكنه كذلك لم يكُن في مقدوره أن يتركه هنا إلى الأبد.

صاح «سكروج» في حماس:

- سيلعبون لعبة أخرى! رجاء أيها الروح، دعني معهم نصفَ ساعةٍ آخرَ.

كانوا سيلعبون لُعبة تدعى «نعم أم لا؟»، وفيها سيفكر ابن أخت «سكروج» في أمر، وعليهم تخمينه، ولا يستطيع هو سوى الإجابة عن تخميناتهم بـ«نعم» أو «لا».

تعالت الأصوات بالتخمينات والأسئلة، هل هو حيوان؟ حيوان مُدجن، أم بري، أم مفترس؟ أيعيش في لندن أم خارجها؟ أيجوب الشوارع، أم يسكن الغابات؟ أهو حصان، أم بغل، أم ثور، أم بقرة؟ مع كل تخمين كان ابن أخت «سكروج» ينفجر ضحكًا.

صاح أحدهم:

- عرفتُ في أي حيوان تفكِّر يا «فريد»!

- في أي حيوان؟

- خالك «سكروج»!

لكن الآخرين استمروا في تخميناتهم، مُبعِدين أي ضيق قد يكون انتاب «فريد» من ذكر خاله، لكنه قال أخيرًا:

- لقد منحنا خالي كثيرًا من المرح، فلنشرب نخب صحته. هاك زجاجة خمر فاخرة، نخب خالي «سكروج»!

صاح الجميع:

- نخب الخال «سكروج»!

أضاف ابن أخت «سكروج»:

- عيد ميلاد مجيد، وعام جديد سعيد لخالي العجوز أينما كان. لن يستطيع انتزاع المرح عنِّي، لكنني أرجو له السعادة كلها.

لان قلب «سكروج» لسماع ما قال ابن أخته، وتمنَّى لو تسمح له الروح بمزيدٍ من الوقت ليشكرهم حتى لو لم يسمعوه. ومع آخر كلمات الشاب، تبخَّر المشهدُ من أمامه، ووجد نفسه في ترحال جديد برفقة الروح.

أينما ارتحلا وحلا، فثمَّة مَحبة ومرحٌ في كل بيت. كان الروح يقف بجوار أسِرَّة المرضى فتحل السعادة، ويقتحم السجون فتزول الشدائد، ويمحو بكفه المباركة الفقر والمعاناة، ويترك هداياه خلف كل باب.

كانت ليلة طويلة، لو أنها كانت بالفعل ليلة؛ فالأحداث في مُختلف الأماكن قد تكاثفت في سويعات قليلة، ورأى «سكروج» الروح يشيخ بشكل ملحوظ، لكنه لم يعلِّق، حتى غادرا ملجأ أطفال ووقفا في الخلاء، وأمامه بدا شَعرُ الروح شائبًا تمامًا.

سأل «سكروج»:

- أأعمار الأرواح قصيرة هكذا؟

- عمري على هذه الأرض محدود للغاية، وينتهي الليلة.

صرخ «سكروج»:

- الليلة؟!

- عند منتصف الليل.. موعدي يقترب.

راحت الأجراس تدقُّ مُعلنة الساعة الحادية عشرة إلا الربع. نظر «سكروج» نحو طرف رداء الروح وسأل:

- اعذرني في السؤال أيها الروح، أرى شيئًا غريبًا مُتبديًا عند طرف الرداء، أهي قدم أم مخلب؟

- ربما كانت مخلبًا بالفعل.. انظر.

من طيَّات ثياب الروح، خرج طفلان مرعبان تعيسان. ركعا أمام روح عيد الميلاد وتسلَّقا الثوب إلى أعلى. صاح الروح:

- انظر!

كانا ذكرًا وأنثى، لونهما أصفر ومظهرهما أقرب إلى الذئاب، لكنهما كذلك كانا بشريين. وعلى الرغم من أن المُتوقَّع أن سنهما الصغيرة ستُضفي عليهما حيوية وبراءة، فإن منظرهما كان مخيفًا كعجوزين هَرِمين.

تراجع «سكروج» خلفًا من مرآهما، حاول أن يقول إنهما مجرد طفلين صغيرين، لكنَّ حلقه اختنق بالكلمات بدلًا من أن تخرج على هيئة مُجاملة كذوب.

سأل «سكروج» أخيرًا:

- أيها الروح، أهما طفلاك؟

- بل طفلا الإنسان.. يتعلقان برقبتي بحثًا عن أبيهما. هذا الطفل هو الجهل، وتلك الطفلة هي الحاجة. انتبِه إليهما بكل أشكالهما، وخذ حذرك من هذا الصبي تحديدًا، فعلى جبينه مكتوبٌ قدرك، إلا إذا

محوتَه.

مد الروح ذراعه تجاه المدينة وصاح مردفًا:

- فلتعترِف المدينة بذنبها تجاههما، ولتهرب من مصيرها الخطر إن تجاهلتهما.

تساءل «سكروج»:

- ألا يوجد أي مأوى لهما؟

التفت الروح إليه مُتحدثًا بكلماته التي تفوَّه بها البخيل من قبلُ:

- ألا توجد سجون؟ والإصلاحيات التي تؤوي الفقراء، ألا تزال موجودة؟

ودقت الساعة مُعلنة الثانية عشرة منتصف الليل.

نظر «سكروج» حوله بحثًا عن الروح، فلم يجده. ومع زوال صوت آخر دقات الساعة عن أذنيه، تذكَّر نبوءة جايكوب مارلي، ورفع عينيه عاليًا فأبصر روحًا متدثرًا في رداء وغطاء رأس، اقترب من وسط الضباب المرتفع من الأرض نحوه.

المقطع الرابع
آخر الأرواح الثلاث

تقدَّم الروح منه ببطء، وحزن، وصمت. عند دنوه منه، ركع «سكروج» على ركبتيه وسط الأجواء المحمَّلة بالجهامة والغموض المحيطين بالروح المسربل بالسواد، والمتشح بعباءة مهترئة تغطي رأسه، ولم يكن يظهر منه شيء سوى ذراع ممدودة. كان من الصعب تفرقة الروح عن الظلام المحيط به، إلا أن «سكروج» استنتج أنه طويل القامة، نحيف، ذو حضور غامض بثَّ الذعر في قلبه، وزاد من خوفه أن الروح لم يتحدث أو يتحرك.

سأل «سكروج»:

- أأنا في حضرة روح عيد الميلاد المجيد المستقبلي؟

لم يجِب الروح، وإنما مد كفه أمامه.

- هل ستريني أمورًا لم تحدث بعدُ، لكنها ستحدث في المستقبل؟ أليس كذلك أيها الروح؟

انقبض الجزء العلوي من العباءة داخل طيَّاته، وكأنَّ الروح يومئ برأسه، وكانت تلك هي الإجابة الوحيدة التي حصل عليها «سكروج».

على الرغم من اعتياد «سكروج» مؤخرًا صُحبة الأرواح، فإنه كان مُرتعبًا من ذلك الروح الصامت الغامض، وراحت ساقاه ترتعشان من تحته، ووجد صعوبة في أن يقف عليهما عندما حاول أن يتبع الروح.

رمقه الروح للحظات، ومنحه وقتًا ليستجمع شتات نفسه، لكن «سكروج» كان في حالٍ سيِّئ؛ إذ كان يتخيَّل ما خلف المسوح من عينين مرعبتين تنظران إليه، وأن ما يراه من الروح ما هو إلا جسد أثيري مظلم داخل كومة من الأسمال.

- يا روح المستقبل! أنا أخافك أكثرَ مِمَّا كنت أخاف أيًّا من الأرواح السابقة، لكنني أعرف أنك تبغي مساعدتي، وأرجو أن أحيا لأكون رجلًا أفضل مِمَّا كنتُ؛ لذا سأتحمَّل ما أعانيه من خوف، لكن.. هلَّا تحدثت إليَّ؟

كانت إجابةُ الروح هي إشارةً بكفِّه نحو الأمام.

- دُلِّني إذًا، فالليل يَذْوَى، والليل هو كل ما أملك. دُلِّني على الطريق أيها الروح!

تحرك الروح مبتعدًا، فتبع «سكروج» ظلال ثوبه نحو المجهول.

بالكاد تقدَّما نحو المدينة، حتى بدت المدينة نفسها وكأنَّها تبزغ من حولهما، وتبتلعهما وسطها. رأى «سكروج» التجار يهرولون، ويدسون أموالهم الذهبيَّة في جيوبهم، وينظرون إلى ساعاتهم، ويخبئون

أختامهم كما اعتاد «سكروج» رؤيتهم طيلة حياته.

أشار الروح إلى تجمُّعٍ لهم عند ناصية، فاقترب «سكروج» منهم يسمع ما يقولون.

قال رجل منهم، ذو لُغدٍ شحيم:

- لا أعرف أكثر من أنه قد مات.

سأل آخر:

- ومتى مات؟

- أعتقد خلال الليل.

قال ثالث، وهو يُخرج بعضًا من مسحوق «النشوق» من علبة صغيرة:

- ظننته لن يموت أبدًا.

قال الأولُ مُتثائبًا:

- الله قادر على كل شيء.

تساءل رجل أنيق، ذو زائدة لحمية مُتدلية من طرف أنفه، كزائدة ديك حبشي:

- وماذا فعل بماله؟

أجاب ذو اللُّغد:

- لم أسمع عنه؛ فهو لم يترك لي شيئًا على أيِّ حال.

صدحت الضحكات إذ أردف:

- غالبًا ستكون جنازته رخيصة، فلا أعرف من سيكلف خاطره ويذهب ليُودِعه مثواه الأخير. ما رأيكم أن نجتمع لنشيِّعَه؟

قال ذو الزائدة اللحمية:

- لا مانع لديَّ إن كانوا سيقدمون لنا غداءً.

ضحك الجمع مُجددًا، وقال المُتحدِّث الأول:

- لا يهمني الطعام كثيرًا، لكنني لن أذهب إن لم يذهب أحدُهم معي. لقد كنتُ صديقَه المقرب، فكنا حين نتقابل نتوقف لتبادل الحديث الشائق الذي لا يتعدى كلمتين: سلامٌ، سلام!

سار الجمع مبُتعدًا، واختلط بالزحام. كان «سكروج» يعرف أولئك الرجال، ونظر نحو الروح طالبًا التفسير، لكن الروح تحرَّك وسط الشارع مُشيرًا إلى اجتماع شخصين، فأنصت «سكروج» ظانًّا أن التفسير يكمُن في حديثهما.

كان يعرف كلا الرجلين؛ فقد كانا تاجرين ثريين مُهمين، وكان يحترمهما من وجهة نظر الأعمال والمال فقط.

قال أحدهما:

- كيف حالك؟

أجاب الآخر:

- كيف حالك أنت؟

- بخير

- الجو بارد.

- هكذا الحال أيام عيد الميلاد. أسمع أنه قد مات بدور برد!

- لا أعرف، ولا أهتم..

- أنت لا تحب التزلُّج على الجليد، أليس كذلك؟

- لا أحبه، لديَّ اهتمامات أخرى. طاب يومك.

وكان هذا هو لقاءهما وافتراقهما! في البداية، تعجَّب «سكروج» من السبب الذي جعل الروح يشير إليهما ليسمع حديثهما، لكنه افترض أن للروح غرضًا ما من وراء ذلك؛ فغالبًا لا علاقة لهما بموت جايكوب مارلي، شريكه؛ فموت الأخير كان حدثًا في الماضي، والروح برفقته يمثِّل المستقبل.

ركَّز «سكروج» في أن يجمع المعلومات مِمَّا يراه، وأن يرى نفسه في المستقبل كي يعرف الغرض من رحلته تلك؛ فظهوره في المستقبل سيفسِّر كثيرًا من غموض ما يحدث. ظل يحدِّق فيما حوله، منتظرًا أن يرى نفسه، لكنه لم يرَ أي لمحة من وجوده على الرغم من أن وقت انصرافه من المكتب قد حلَّ، وبدأ القلق ينهش عقل «سكروج».

بجواره، ظل الروح ثابتًا، مظلمًا، يشير إليه بكفِّه، ويحدِّق فيه بعينين خفيتين تبثَّان الذعر في نفسه، وتُرعِد جسده، وتشعره ببردٍ شديد.

غادرا الشوارع المزدحمة، واتجها إلى أطراف المدينة التي لم يكُن «سكروج» قد ذهب إليها من قبلُ. كانت الشوارع ضيقة، والمحال والبيوت بائسة، والأناس أنصاف عرايا، غارقين في الخمر. المكان كله كان يفوح بروائح الجريمة، والقذارة، والتعاسة.

تعمَّقا أكثر داخل هذه المنطقة الشبيهة بالوكر، حتى وصلا إلى متجر صغير للأغراض المستعملة والقديمة وبقايا المنتجات، حيث تُباع الخردة والزجاجات والعظام وبقايا الدهون، وتتراكم في أركانه المفاتيح الصدئة والسلاسل والمفصلات وبقايا المعادن المتنوِّعة. بجوار موقد فحمٍ عتيق، يجلس شيخ هَرِم تجاوز السبعين، يعزل نفسه عن الهواء البارد بجلوسه خلف ستارٍ رثٍّ مُعلَّقٍ على حبل. وكان يدخِّن الغليون في هدوء مَن تقاعد ويقضي وقته في الاستجمام.

اقترب «سكروج» والروح من هذا الجالس، في الوقت نفسه الذي دخلت فيه امرأتان ورجل رثاث الثياب، ما إن رآهم العجوز حتى ضحك وضحكوا. كانت إحدى السيدتين خادمة، والثانية غسَّالةَ. أما الرجل فكان حانوتيًّا.

صاحت المرأة الأولى محدِّثة العجوز:

- يالها من مصادفة يا «جو»، إذ نتقابل هنا جميعًا دون موعد هكذا!

قام العجوز مُغلقًا أبواب المتجر الصدئة، واصطحب ضيوفه إلى حجرة جانبية مُرحِّبًا بهم.

أما الحجرة الجانبية، فكانت مجرد مساحة خلف الستار المهترئ؛ حيث جلس العجوز يكوِّم الفحم في المرجل بعودٍ حديدٍ قديمٍ، ووضع الغليون في فمه مجددًا.

رمت السيدة، التي تحدَّثت في البداية، صُرَّةً من القماش كانت معها على الأرض، وجلست بفخرٍ على كرسي منخفض، مُسندةً كوعيها على ركبتيها، ناظرةً في تحدٍّ إلى رفيقيها الآخرين قائلةً:

- حسنًا.. مَن سيكون مسؤولًا لو ضاعت منا أشياء كتلك التي معي؟ ماذا لو لم أجدها؟ المسؤولية ليست مسؤولية رجل ميت على أي حال.

قال الحانوتي:

- فعلًا ليست مسؤوليته، فكيف يعرف أنه كان سيموت وحيدًا ويترك أغراضه هكذا بلا حارس؟

قالت المرأة الأولى:

- لو كان يريد الاحتفاظ بها في حوزة عائلته بعد مماته، ما كان ليعامِل الجميعَ تلك المعاملة، ذلك العجوز القذر! لو أن له قريبًا يعتني به ويعرف بخبر موته ما تُركت الأغراض بلا رقيب.

قال الحانوتي:

- صدقًا قُلتِ.. هذا جزاء ما فعل في حياته؛ الموت وحيدًا.

- أتمنَّى لو أن ثَمَّةَ مصيرًا أسوأ من هذا جزاء له. لو استطعتُ الاستيلاءَ على مزيدٍ من أغراضه لفعلتُ. افتح الصُّرة يا «جو»، وأخبرني بكم تشتريها. قُل سعرها الحقيقي؛ فأنا لا أخشى أن تتهمني بالسرقة، فلستُ أول من يأخذ من أغراض العجوز ولن أكون الأخيرة. وهاهم رفاقي هنا مثلي، لن يلوموني؛ فنحن نحاول مساعدة أنفسنا والنجاة من فقر الحياة. افتح الصُّرة يا «جو».

غير أن الحانوتي أبرزَ غنيمته أولًا، ولم تكُن ضخمة: بعضِ الأختام، وحافظة أقلام، وأزرار قميص. أشياء قليلة القيمة، ظلَّ «جو» يقلِّب فيها ويتفحَّصها بُرهةً، ويكتب على الحائط بالطبشور قيمة كل غرض منها.

قال «جو»:

- هذا هو حسابك، ولن أزيدك مليمًا آخر. مَن التالي؟

كانت التالية هي السيدة «ديلبر»، وكان معها بعض الملاءات والمناشف، وبعض فضيات المائدة، وأحذية قديمة. وبدأ «جو» في كتابة الأسعار على الحائط وجمعهم. ثم قال:

- دائمًا ما أمنح النساء سعرًا أعلى، هذه هي نقطة ضعفي التي أضاعت حياتي! ها هو حسابك، ولو جادلتِني في مليم آخر سأخصم نصف جنيه من المال!

صاحت الخادمة، التي كانت أول مَن تحدث حين دخلوا:

- الآن، جاء دوري.. فُضي صُرَّتي يا «جو»!

ركع «جو» على ركبتيه، وبدأ في حل عُقدةٍ تلو الأخرى، وأخرج شيئًا ثقيلًا داكنًا.

- وما هذا؟ ستائر فراش؟!

مالت السيدة أمامًا وهي تضحك وتقول:

- أجل.. ستائر فراش!

- لا تقولي إنكِ أنزلتِها كاملةً بحلقاتها وهو بعدُ ممدَّدٌ على فراش موته!

- ولِمَ لا أنزلها؟! طالما طالت يداي شيئًا من أغراض هذا البخيل القاسي، فسآخذها دون تفكير. والآن، انظر.. هذه هي أغطيته.

تساءل وهو ينظر داخل الصُّرة:

- أغطيته؟

- أغطيته طبعًا، فلن يُصاب بالبرد دونها.

ابتعد «جو» قليلًا وقال:

- آمل أنه لم يمُت إذًا بمرضٍ مُعدٍ.

- لا تقلق، لم أكُن مولعةً بمرافقته، فلو كان حاملًا مرضًا ما فهو لم ينقله إليَّ. انظر كذلك إلى هذا القميص.. أفضل قميص لديه، ولن تجد فيه ثقبًا واحدًا. كان ليضيع لو لم آخذه أنا.

- ماذا تعنين أنه سيضيع؟

ضحكت المرأة وأردفت:

- فكرة أن يُدفن بقميص ممتاز كهذا، غير مُستساغة بالنسبة لي. أحدهم اقترح دفنه بقميصه، لكنني تصديت له وخلعته عن المتوفَّى.. فليلبسوه أي أسمال، فلن يفرق مظهره الجيد في شيء تحت الثرى.

ظل «سكروج» يُنصت إلى هذا الحوار في هلع، ويراهم ملتفِّين على ضوء المصباح حول أغراضه الخاصَّة، يقلِّبون فيها وينهشون حُرمتها وكأنَّهم ينهشون جثَّته ذاتها.

ظلت السيدة تضحك، بينما «جو» يُخرج زكيبة من قماش قطني تحوي مالًا وأعطاها إياها. قالت السيدة في مرح:

- هذه هي نهايته؛ فقد كان يخيفنا ويبعد الجميع عنه في حياته، وها نحن ننتفع بما تركه بعد مماته.

ارتعد «سكروج» من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وصاح:

- أيها الروح! أرى.. أرى أن من مات قد يكون أنا! هل تنتهي حياتي بهذا الشكل الهزلي؟! رُحماه!

تراجع خلفًا والمشهد حوله يتغيَّر، وكاد يصطدم بفراش، عارٍ من الستائر، يستلقي عليه جسدٌ مُغطًّى بأسمال. كانت الحجرة التي وجد نفسه فيها حالكة الظلمة، فلم يتعرَّف إلى أيٍّ من تفاصيلها إلا عندما بزغ ضوءٌ من الخارج، وانصبَّ على الفراش يضيء تفاصيل المُمَدَّد فوقه.

نظر «سكروج» نحو الروح، فأشار إلى رأس مَن على الفراش، والتي كانت تغطيه بالكاد ملاءة، لو تحرَّك أي شيء حولها لانزاحت كاشفةً عن وجه المُسجى تحتها.

فكر «سكروج» في سهولة الكشف عن الوجه، ورغبته في سبر غور الغموض، لكن كانت قدرته الفعلية على رفع الغطاء مماثِلة لقدرته على صرف الروح الذي بجواره.

الموت البارد.. البارد القاسي المروِّع، قد أقام مذبحًا له هنا، وزيَّنه بالرعب والصوت الصادح بلا مصدر: «هذه هي أعمالك! لو استطاع هذا الرجل أن يحيا مجددًا، فهل سيدرك أخيرًا ما جلبه عليه حبُّ المال؟ هل سيدرك نهاية ثرائه وبُخله؟ ها هو يرقد وحيدًا في منزل خاوٍ، بلا رفيق يعطف عليه ميتًا كما عطف هو عليه حيًّا».

على الرغم من توقُّف القلب والجسد، فستظلُّ يدُ المُحسن مبسوطةً في مماته، وتُخرج أعماله الخيِّرة من قلبه الساكن لتملأ العالم بحياةٍ أبديَّة.

لم يسمع «سكروج» تلك الكلمات بأذنيه، لكنه سمعها كاملةً واضحة. ثم تنامى إلى أذنيه صوت قطٍّ يموء عند الباب، وصوت فئران تتدافع تحت المصطبة الحجرية أمام الحجرة. ماذا يريد قط وفئران من غرفة رجل ميت؟ ولِمَ انزعاجها وقلقها؟! لم يجرؤ «سكروج» على التفكير في إجابة.

صرخ «سكروج»:

- أيها الروح! هذا مكان رهيب، وبمغادرته لن يغادرني أبدًا ما تعلمته فيه.. لنذهب من هنا!

لم يحرك الروح يده بعيدًا عن رأس المتوفَّى. أردف «سكروج»:

- أفهمك.. وكنت لأزيل الغطاء وأكشف عن الوجه لو استطعت، لكنني لا أستطيع أيها الروح، لا أستطيع!

ظل الروح يشير إلى رأس المتوفَّى. قال «سكروج» بائسًا:

- لو أن في المدينة مَن يُكِنُّ لذلك الميت محبة أو مشاعر طيبة، أرني إياه أيها الروح.. أرجوك!

فرد الروحُ رداءه الواسع كجناح، ثم طواه كاشفًا عن حجرة مُضاءة بضوء الشمس، يظهر فيها أم وأطفالها. كانت الأم تبدو كأنَّها تتحرَّق شوقًا لوصول أحدهم، فكانت تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وتنظر خلال النوافذ وتتفقَّد الساعة. تجلس هنيهةً وتبدأ في التطريز، لكن قلقها يقطع عليها عملها، ويكمل تشتتَها صوتُ لعب الأطفال.

أخيرًا، سمعت صوت طرقة على الباب، فهرعت نحو الأخير، وقابلت زوجها الذي بدا عليه الهمُّ والحزن.

جلس بجوار الطعام المُعد له بجوار المدفأة، وبعد هنيهة صمت سألته عن الأخبار، فبدا عليه حرجٌ من الإجابة. سألته:

- أهي أخبار سعيدة أم سيئة؟

- سيئة.

- ضعنا؟!

- هناك دومًا أمل يا «كارولين».

- لو أنه فقط يرضخ!

- فات وقت الرضوخ؛ فقد مات.

ارتاحت روحها لسماع الخبر، لكنها دعت الله كي يغفر لها ارتياحها لموت شخص، فما شعرت به كان بدافع العواطف لا العقل.

- عندما وصلتُ إليه كي أطلب منه مُهلةً لسداد الدَّين، قيل لي إنه يُحتضر.

- وإلى من سيؤول دَيْنُنا؟

- لا أعرف، لكن عليَّ تجهيز المال عند موعد استحقاقه، فلا نعلم إن كان وريثه في مثل قسوته. لكن دعينا ننَم اليوم بقلبين خفيفين، آملين أن يجعل الله لنا مخرجًا ويرزقنا بوريثٍ صالحٍ يُمهلنا.

وكان ما رآه «سكروج» هو سعادة نابعة من رحيله لا أكثر، فقال للروح:

- أرني أي أمل، أم أن الحجرة المظلمة التي غادرناها هي مصيري من الآن وحتى لحظة وفاتي؟

صحبه الروح خلال عددٍ من الشوارع المألوفة، وراح «سكروج» ينظر في كل اتجاه عسى أن يرى نفسه قبل موته هنا أو هناك. ثم وجد نفسه يدخل مع الروح منزل بوب كراتشيت، ورأى زوجته وأولاده جلوسًا حول المدفأة.

كان الصغار صامتين على غير عادتهم، جالسين في رُكنٍ، ناظرين نحو أخيهم الأكبر «بيتر»، الذي كان يقرأ كتابًا. بينما الأم وبناتها يطرِّزن ويخيم عليهن الهدوء كذلك.

انتهى «بيتر» من قراءته، ووضع الكتاب جانبًا، رفعت أمه عينيها عن التطريز وقالت:

- هذه الألوان تؤلم عينيَّ..

وتذكَّر «سكروج» فجأة «تايني تيم» الصغير. أردفت المرأة:

- لكنني أشعر بتحسُّن الآن. أعتقد أن ضوء الشمعة الشحيح يُتعب نظري، لكنني لن أسمح لنفسي بأن أُبدي مرضًا أمام أبيكم حين يعود من عمله ومن قسوة الحياة في الخارج. لا بُدَّ من أن موعد عودته قد اقترب.

قال «بيتر»:

- موعد وصوله قد مضى يا أمي. أعتقد أن مشيته صارت أبطأ مؤخرًا عمَّا اعتدناه.

ساد الصمت مرة أخرى فترة، ثم قالت السيدة «كراتشيت» في صوتٍ جاهدت كي يكون مرحًا:

- أجل.. أجل.. اعتاد أن يسير بسرعة حين كان... حين كان يحمل «تايني تيم» على كتفيه.. لقد كان خفيفًا للغاية.

وافقها «بيتر» والأولاد، وعادت الأم إلى تطريزها مُضيفةً وكأنَّها تختبئ خلف عملها:

- لقد كان خفيفًا للغاية.. وكان أبوه يُحبه، لم يجد أبدًا مشقَّةً في حمله.. ها قد وصل أبوكم!

هرعت إلى ملاقاته، وكان متدثرًا في شاله الثقيل، بطيء الحركة، مُنهكًا. التفَّ أولادُه حوله وجذبوه ليجلس بجوار الشاي، وجلس ابناه الصغيران على فخذيه، وألصق كلٌّ منهم خدًّا على خده، وهم يرددون:

- لا تحزن يا أبي، كفاك حُزنًا..

تحدَّث «بوب» مع أبنائه في مرح قدر استطاعته، ثم نظر إلى شُغل يد السيدة «كراتشيت» وبناته وامتدح إتقانه وسرعة تنفيذه.

سألت زوجته:

- هل ذهبت اليوم إليه؟

- أجل يا حبيبتي، لكم تمنيت لو استطعتِ المجيء، لكنكِ ستزورينه كثيرًا، فقد وعدته أننا سنزوره أسبوعيًّا.. آه يا بني العزيز.. يا بني الصغير!

انفجر باكيًا بغتةً، ولم يستطِع السيطرة على مشاعره. غادر الغرفة وصعد إلى الطابق العلوي، الذي كان مُضاءً ومُزيَّنًا بزينة عيد الميلاد المجيد. كان ثَمَّةَ كرسيٌّ صغير بجوار فِراش، جلس عليه «بوب» ومال يقبِّل فِراش ابنه الراحل، «تايني تيم»، ثم قام ونزل إلى عائلته مرة أخرى ليحكي لهم عن طيبة ابن أخت «سكروج»، الذي قابله مرةً واحدةً من قبلُ في المكتب، ولم يقابله مجددًا إلَّا منذ أيام. لاحظ الشابُّ الهمَّ الذي يحمله «بوب» على كتفيه، فحكى له. وهنا أعطاه الشاب بطاقةً مكتوبًا فيها عنوانه، وطلب منه أن يمرَّ عليه ليريا ما يمكنه مساعدة الأسرة الصغيرة به.

- كأنّه كان يعرفنا، يعرفك يا زوجتي الحبيبة ويعرف بسالتك، ويعرف «تايني تيم»، ويشعر بما نشعر به!

قالت السيدة «كراتشيت»:

- واثقة بأنه نقيُّ القلب.

- ستتقين بذلك أكثر لو تحدثتِ إليه. أعرف كذلك أنه سيساعد «بيتر» كي يجد عملًا أفضل.

صاح أحد الأطفال:

- سيجد «بيتر» لنفسه عملًا وسيتزوَّج وسيبتعد عنَّا!

ردَّ الأب في بشاشة:

- سيحدث هذا عاجلًا أو آجلًا.. لكننا أبدًا لن نفترق مهما ابتعدت بنا السُّبُل، ولن ننسى «تايني تيم».

صاح الجميع:

- أبدًا يا أبتِ، لن ننساه!

- أعرف يا صغاري، وأعرف أننا حين نتذكَّر كيف كان صابرًا شجاعًا على الرغم من صغر حجمه، فلن ننسى أبدًا ضعفاءنا وننشغل بتوافه أمور الحياة.

صاح الأطفال مجددًا:

- لن ننشغل بتوافه الحياة يا أبي!

وتعانقت الأسرة تحفهم روح «تايني تيم»، عطية الله لهم.

قال «سكروج»:

- أيها الروح! شيء يُنبئني أن فراقَنا قد اقترب، فأخبرني مَن الميِّت المُسجى على الفراش؟!

كعادته، لم يُجِب الروح عن سؤاله، بل أخذه وطاف به شوارع المدينة، حتى مرا بجوار مكتب «سكروج»، نظر «سكروج» داخله فوجد أثاث المكتب قد اختلف تمامًا. لكن الروح لم يتوقَّف، واستمر في سيره مُشيرًا إلى الكنيسة، وإلى ما خلف سور المقابر. عبرا السور وسارا بين الشواهد حتى توقَّف الروح مشيرًا إلى قبر بعينه.

صرخ «سكروج»:

- قبل أن أقترب خطوةً أخرى نحو الشاهد الذي تشير إليه، أخبرني.. هل ما أرى هو المستقبل أم مجرد ظلال لما قد يكون عليه المستقبل؟

لم يتحرك الروح، وظل يشير إلى الشاهد. أردف «سكروج»:

- أفهم أن تصرفات المرء واختياراته تَنبئ بما ستكون عليه حياته في المستقبل.. لكن، إن تغيَّرت خياراته سيتغيَّر مصيره، وسيتغيَّر كل ما أريتني إياه!

ظل الروح ثابتًا كما هو. اقترب منه «سكروج» مرتجفًا، وتبعت عيناه كفَّ الروح إلى حيث يشير، إلى حيث شاهد القبر المهجور المغطَّى بالنباتات الجافة، وقرأ اسم إيبنزر سكروج.

صرخ «سكروج» راكعًا على ركبتيه:

- أأنا الرجل الميت؟!

تحرَّك إصبع الروح إليه، ثم عاد ليشير إلى القبر.

- كلَّا أيها الروح! كلَّا!

تمسَّك «سكروج» برداء الروح وصاح:

- أيها الروح، اسمعني.. لم أعُد الرجل الذي كُنتُهُ، ولن أكون الرجل الذي تسبَّب في كل تلك التعاسة التي أريتني إياها. لِمَ تُريني هذا كله إذًا إن لم يكُن ثَمَّةَ أملٌ في توبتي؟!

لأول مرة، ظهرت ارتعاشة على يد الروح الممدودة، أكمل «سكروج» توسلاته:

- أيها الروح الطيب، أنت تشفق عليَّ.. أعرف ذلك. طمئنني أنني أستطيع تغيير ما رأيته، وأستطيع تغيير حياتي!

ظلت الكف العطوف ترتعش.

- سأمجِّد روح عيد الميلاد وسأحتفظ بها في قلبي طيلة العام. سأحيا بما علَّمَتْني إياه الأرواح في ماضيَّ وحاضري ومستقبلي. أخبرني فقط أن في إمكاني محو اسمي عن هذا القبر الكئيب!

تمسك «سكروج» بيد الروح، الذي حاول أن يسحبها منه، لكن العجوز كان متشبثًا ويزداد تمسُّكه كلما حاول الروحُ التملُّصَ.

أخيرًا، استسلم «سكروج» وضم كفيه معًا في صلاةٍ ورجاء، فرأى مظهر الروح يتغيَّر، وتتكمش العباءة والروح بداخلها، وتنهار متكوِّرةً على نفسها، مُتحوِّلة إلى فِراش.

المقطع الخامس
نـهاية الرحلة

أجل!

كان الفِراشُ فِراشَ «سكروج»، موضوعًا في حجرة «سكروج»، وكل شيء عاد كما كان، طبيعيًّا، واقعيًّا، مُطَمْئِنًا.

صاح العجوز:

- سأحيا ماضي وحاضري ومستقبلي! ستحيا الأرواح الثلاث في قلبي أيا جايكوب مارلي! إلهي، بارك الله موسم عيد الميلاد المجيد.. سأخرُّ على ركبتيَّ وأدعو الله أن يبارك أيامنا وأن يبارك جايكوب مارلي!

كان «سكروج» يُشع ويضيء بطيب نواياه وصدق سريرته، ويتكسَّر صوتُه خشوعًا، ويبتلُّ وجهه بدموع الخلاص. نظر «سكروج» نحو الفراش عَرَضًا، فرأى ستائره سليمة، فهرع نحوها يتحسسها ويردد:

- الستائر لم تُمزَّق! الستائر سليمة، وأنا سليم، وكل ما رأيته في المستقبل لم يحدث بعدُ، وسأستطيع تغييره!

ظلت يداه مشغولتين بثيابه، يقلِّبها ويعدِّلها، يمزِّقها، يطويها. صاح «سكروج» ضاحكًا باكيًا معًا:

- لا أعرف ماذا أفعل! أنا في خِفَّة الريشة، وفي سعادة مِلاك، وفي مرح تلميذ صغير، وفي ثمالة سكير عتيد! عيد ميلاد مجيد للجميع، وعام جديد سعيد! هالُّو هووب هالُّو! مرحى!

هرع خارجًا من مخدعه إلى حجرة معيشته في نشاط، وظلَّ يدور حول المكان وهو يصيح:

- ها هو الوعاء الذي كانت فيه عصيدتي، وها هو الباب الذي دخل إليَّ منه شبح جايكوب مارلي! وهذا هو الركن الذي جلس فيه روح عيد الميلاد الحالي! وهناك.. هناك أرى النافذة التي منها رأيت الأرواح الهائمة في الظلام! كل شيء كان حقيقيًّا، كل ما رأيت قد حدث فعلًا!

ثم صدحت ضحكةٌ هي أمٌّ لكل الضحكات التي لم يضحكها «سكروج» في حياته البائسة، ومنها تفجَّرت ضحكات وليدة مشرقة ملأت الأجواء من حوله بِشرًا:

- لا أعرف في أيِّ يوم من الشهر نكون، ولا أعرف كم أمضيتُ في رفقة الأرواح، لا أعرف أي شيء سوى أنني عُدتُ طِفلًا، ولا يهمني أن أعرف طالما وُلدت من جديد! هالُّو هووب! مرحى!

رافقت صيحاته المرحة أصوات أجراس الكنيسة: دينج، دونج، كلانج! ياللروعة!

عدا نحو النافذة، ففتحها، ودسَّ رأسه خارجها. لم يكن ثمَّة أثرٌ للضباب، لم يرَ سوى الصفاء، والجو البارد النقي الذي يدفع الدماء في العروق إلى الرقص تحت الشمس الذهبية والسماوات البرَّاقة، ووسط نسمات الهواء المنعشة وأصداء أجراس الكنائس. ياللجمال!

سأل «سكروج» طفلًا مارًّا في الشارع:

- في أيِّ يومٍ نحن؟!

نظر إليه الطفلُ مُتعجبًا، فأعاد «سكروج» السؤال:

- في أيِّ يومٍ نحن يا صغيري العزيز؟

أجاب الطفل:

- اليوم؟ اليوم هو يوم عيد الميلاد المجيد!

قال «سكروج» لنفسه:

- يوم عيد الميلاد؟ لم يفُتني اليوم، وكلُّ ما مرَّ بي مرَّ في ليلة واحدة! وإن فعلتِ الأرواح هذا كله في ليلة، فبإمكانها فعل أي شيء، أي شيء!

ثم صاح مجددًا عبر النافذة:

- أيها الصغير العزيز!

- أجل.

- أتعرف بائع الدواجن عند ناصية الشارع التالي؟

- أعتقد أنني أعرفه.

- ممتاز، أنت صبي ذكي.. أتعرف إن كان قد باع الديك الحبشي العملاق الذي كان معروضًا عنده؟ العملاق، لا الديك الصغير.

- الديك العملاق في حجمي تقريبًا؟ أتقصده؟

- يالك من صبي ذكي لطيف، أنا سعيد بحديثنا. أجل، أعني الديك الذي في حجمك.

- ما زال هناك، لم يُبَع.

- فعلًا؟! اذهب واشترِه لي!

- الآن؟!

- أجل، أنا مُتعجِّل! اذهب واطلب منهم إرساله لي، وأنا سأخبرهم إلى أين يرسلونه. أو اذهب واجلب لي البائع وسأعطيك شلنًا.. لو عدت قبل خمس دقائق سأضاعف لك الأجر!

انطلق الصبي كالرصاصة، بينما همس «سكروج» لنفسه ضاحكًا:

- سأرسله إلى بوب كراتشيت، ولن يعرف مَن أرسله. الديك في ضعف حجم «تايني تيم»!

دوَّن عنوان السيد «كراتشيت» ببدٍ مُرتجفة، ونزل إلى باب المنزل ينتظر قدوم بائع الدواجن. وبينما يقف هناك مُنتظرًا، لفتت نظرَه مقرعة الباب. فمسَّدها بكفه في محبة وقال:

- سأحب تلك المقرعة ما تبقَّى لي من عمر. ها قد وصل الديك! هالُّو هووب! كيف حالك؟ عيد ميلاد مجيد سعيد!

قالها للديك الضخم، الذي كان يقف بالكاد على ساقيه، ويُخشى من انكسارهما تحت ثقل وزنه. أردف «سكروج» مُخاطبًا البائع:

- من المستحيل حمل هذا الديك إلى مدينة كامدِن، لا بُدَّ لنا من عربة!

كان يضحك وهو يقول تلك العبارة، ويضحك وهو يدفع للبائع ثمن الديك، ويضحك وهو يوقف عربة، ويضحك وهو يُجزل للصبي العطاء.

ثم أخيرًا، تبعته ضحكته إلى حيث جلس أمام المدفأة، يضحك ويضحك حتى انقلبت ضحكاتُه بُكاءً.

ثم قام واغتسل وحلق لحيته، وارتدى أفخر ما لديه، وخرج إلى الشوارع وسط طوفان الناس، بالضبط كما رآهم في رحلته مع روح عيد الميلاد الحالي. سار «سكروج» ويداه منعقدتان خلفه، يومئ للمارة ويحييهم بابتسامة مخلصة، أو يتبادل كلماتٍ مرحةً سريعةً مع هذا أو ذاك. يرد عليه بعضهم:

- عيد ميلاد مجيد سعيد يا سيدي.

وكانت ردودهم هي أبدع نغمات سمعتها أذناه.

لم يكُن «سكروج» قد ابتعد عن بيته كثيرًا، حين قابل أحد الرجلين اللذين زاراه من قبلُ يطلبان التبرعات. قال الرجل:

- أنت صاحب متجر «سكروج ومارلي» كما أتذكَّر؟

شعر «سكروج» بحرج بالغ حين تذكَّر كيف عاملهما من قبلُ، لكنه تمالك نفسه وقال باسمًا:

- سيدي العزيز.. كيف حالك؟ أتمنى أن تكون قد وُفِّقت في مساعيك أمس. كانت تلك لفتة عظيمة منك. عيد ميلاد مجيد سعيد.

- أنت السيد «سكروج»؟ أليس كذلك؟

- بلى.. هذا هو اسمي، وأخشى أنه لم يُذكِّرك بأحداث طيبة. لو سمحت لي بشرف...

ومال «سكروج» على أذن الرجل هامسًا، ثم صاح الرجل مبهور الأنفاس:

- يالبركة الله! أأنت جاد يا سيدي؟!

- جدًّا.. يا عزيزي، أنا مدين للفقراء بالكثير.

تصافح الرجلان وهتف الشاب متحمسًا:

- جزيل الشكر لكَ يا سيدي، لن أوفي حق الـ...

قاطعه «سكروج»:

- لا تقُل شيئًا.. تعالَ في أيِّ وقتٍ لمقابلتي. هل ستأتي؟

صاح الرجل:

- سآتي بالطبع!

- شكرًا، أنا كذلك مدين لك.. أشكرك خمسين مرة، باركك الله.

توجَّه «سكروج» إلى الكنيسة، وفي طريقه صافح المعارف، وربَّت على رؤوس الصغار، وتبادل التهاني مع الغريب والصديق، ومنح الفقراء، وتمتَّع بالنظر إلى نوافذ المنازل الدافئة المُضاءة، وتسلَّلَتْ إلى أنفه روائح الطهي الشهية. كل شيء كان قادرًا على منحه السعادة، ولم يتصوَّر قط أن في مقدور شيء إسعاده.

وفي المساء، قرر زيارة ابن أخته.

ظلَّ يدور حول منزل الشاب مراتٍ عدَّة، حتى استطاع أن يستجمع شجاعته وطرق الباب. فتحت له فتاة رائعة الجمال، فسألها:

- هل السيد هنا يا عزيزتي؟

- أجل يا سيدي.

- وأين هو؟

- في حجرة العشاء مع سيدتي.. سأقودك إليه.

صعدت معه الخادمة، حتى وصلا إلى باب حجرة الطعام، فوضع «سكروج» يده على المقبض وقال لها:

- شكرًا لك، هو يعرفني، سأدخل إليه بنفسي.

أدار المقبض برفق، ودسَّ وجهه في الفرجة. رآهم يتابعون تحضير مأدبة العيد ويشرفون على تنظيمها. قال «سكروج» في محبة:

- «فريد»!

التفت إليه ابنُ أخته، ثم صاح مُهلِّلًا:

- من أرى؟! يا إلهي!

- أنا خالك «سكروج».. جئتَ مُلبيًا دعوتك، فهل تسمح لي بمرافقتكم؟

يسمحِ له؟! لقد أحاطه ابن أخته بذراعيه ولم يتركه، ثم جاء الضيوف ليمنحوه محبَّة غير محدودة، ويحفوه بسعادةٍ لم يشعر بها طيلة حياته.

كان حفلًا مذهلًا، أكلوا كثيرًا، وضحكوا كثيرًا، ولعبوا كثيرًا. لم يكُن شيء قربهم سوى السعادة المُطلقة.

في اليوم التالي، ذهب إلى مكتبه مُبكرًا للغاية، كي يسبق حضور بوب كراتشيت. عند تمام الساعة التاسعة، لم يصل «بوب». ظلَّ «سكروج» ينتظر قدومه فاتحًا باب مكتبه لكنه لم يظهر قبل مرور نصفِ ساعةٍ آخر.

دخل السيد «كراتشيت» وخلع قبعته، وأنزل شاله الأبيض من فوق كتفيه في عجالة، وجلس يعمل سريعًا كي يعوِّض تأخيره.

صاح «سكروج» حتى أفزع «بوب»:

- مرحبًا! ماذا تقصد بقدومك في مثل هذه الساعة؟

- أنا آسف جدًّا يا سيدي، لقد تأخرتُ.. آسف!

ردد «سكروج»:

- تأخرت؟ أجل، أعتقد أنك قد تأخرت. تعالَ إلى هنا لو سمحت.

قام «بوب» مرتجفًا وقال:

- هذا يوم واحد في السنة يا سيدي، لن أتأخر مرة أخرى. لقد كانت ليلة مليئة بالمرح يا سيدي.

- الآن، أقول لك: لن أتحمَّل مثل تلك الأمور أكثر من ذلك؛ لذا...

وقام «سكروج»، واضعًا يديه في جيبيه، متقدمًا من «بوب» الذي تراجع إلى كرسيه في ذعر، وأردف:

- لذا.. سأرفع مُرتبك!

للحظة لم يفهم «بوب» ما قيل، وفكَّر أن الرجل قد جُنَّ. هتف «سكروج» وهو يربت على ظهر السيد «كراتشيت»:

- عيد ميلادٍ مجيد يا «بوب». أرجو لك كل السعادة التي لم أرجُها لكَ طيلة أعوام عملك معي، أيها الرفيق العزيز. سأزيد راتبك، وسأدعم عائلتك المُكافِحة، وسنجلس معًا أنا وأنت في المساء لنرى كيف يمكن أن نُحسِّن معيشتك، ولنتناول معًا عشاءً ساخنًا يا «بوب». هيا! قُم وأشعل نيران المدفأة، وتخلَّص من هذا الموقد القديم واجلب لنا واحدًا جديدًا يا صديقي العزيز الوفي، بوب كراتشيت!

كان «سكروج» عند وعده للأرواح الثلاث..

لم يمُت «تايني تيم»، وأصبح «سكروج» في مقام أبيه الثاني. صار صديقًا مُخلصًا، وسيدًا رحيمًا، ورجلًا صالحًا.

ضحك بعضُ الناس حين لاحظوا التغيير الذي طرأ عليه، لكنه تركهم يضحكون، فقد أصبح «سكروج» حكيمًا حتى أدرك أن ما من سوء قد يحلّ بالعالم إلا وسببه أناس لم ينالوا نصيبهم من المرح والسعادة، وأن الخير تجلبه الضحكات التي تُجعد ما حول الأعين، وتكشف عن الأسنان، وتهز القلب بالمرح، وقد ضحك قلب «سكروج» أخيرًا، وقد ملك بضحكات قلبه الدنيا.

لم يقابل الأرواح مُجددًا، وعاش حياةً واقعيةً عُرف فيها بكونه الرجل الذي يعرف كيف يحفظ روح عيد الميلاد في نفسه، ويحملها بين جنبات روحه طيلة العام.

وكما قال «تايني تيم»:

- فليباركنا الله.. فليباركنا الله جميعًا.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

مُقدمة

المقطع الأول

شبح «مارلي»

المقطع الثاني

أول الأرواح الثلاث

المقطع الثالث

ثاني الأرواح الثلاث

المقطع الرابع

آخر الأرواح الثلاث

المقطع الخامس

نهاية الرحلة